دير القديس العظيم الأنبا أنطونيوس
بالبرية الشرقية بالبحر الأحمر
من كنوز آباء الكنيسة

نصوص مختارة من كتابات

العلاَّمة ترتليان

(من آباء القرن الثاني الميلادي)

تقديم: نيافة الحبر الجليل الأنبا يسطس

مراجعة: القمص تادرس يعقوب ملطي

ترجمة: راهب من دير أنبا أنطونيوس

تُرجِمَت هذه النصوص عن:

The Ante-Nicene Fathers (Vol. 3)
American reprint of the Edinburgh edition.
May 1986.
Translated from Latin by:
The Rev. S. Thellwall.

اسم الكتـــــــاب: نصوص مختارة من كتابات العلَّامة ترتليان.

اسم المـــــترجــــم: راهب من دير أنبا أنطونيوس.

مراجعة لاهـــوتية: القمص تادرس يعقوب ملطي.

اسم النـــــــاشـــر: مكتبة كنيسة الشهيد مارجرجس سبورتنج.

الاخراج الفــــــني: رهبان دير القديس العظيم الأنبا أنطونيوس.

اسم الـمـطـــــبعة: بيترا أنوفيشن

الطـــــــــــبعة: الأولى.

رقــــم الإيـــــداع: 21449− 2014

التــرقيم الدولـــــي: 978- 977- 90- 2312- 0

تقديم

لنيافة الحبر الجليل الأنبا يسطس

بِسم الآب والابن والروح القدس إله واحد آمين.

يبدأ الإنسان المسيحي حياته مع الله بنواله سر المعمودية, الذي فيه يُدفَن مع المسيح ويقوم معه منتصرًا, فيُمنَح نعمة تجديد الطبيعة التي فسدت بغواية إبليس, ثم يحصل على نعمة تثبيت الروح القدس في سر الميرون, فيسكن فيه الروح القدس ويعمل بداخله, ويحيا بالمسيح "فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ"(غل2:20). ثم يمكنه بعدها أن يتمتع بسر الشركة وباقي الأسرار المقدسة, ويتعلم ممارسة وسائط الخلاص, وبالأخص الصلاة في الكنيسة والمخدع. وحينما يتعرض لمحاربات الشرير وإغراءات العالم, تنتشله الكنيسة أُمه الحنون بسرعة بسر التوبة والاعتراف قبل أن يغرق في مراغة الحمأة, ويظل طوال حياته يصبر على التجارب والضيقات التي لابد منها "في العالم سيكون لكم ضيق"(يو16:33). ويجاهد يوميًا بسفك دماه الروحية كالشهيد, بصَلب "الجسد مع الأهواء والشهوات" (غل5:24), إلى أن يأتي يوم انطلاق الروح, والحياة في الأبدية السعيدة.

إن هذا الكتاب يأخذنا في جولةٍ بين أهم احتياجات الإنسان المسيحي للخلاص, منذ مولده وحتى آخر يوم في حياته على الأرض, مِن خلال (المعمودية, والصلاة, والتوبة, والصبر , والاستشهاد), وهي جميعًا نصوصٌ كُتبت في بداية القرن الثالث الميلادي, وجميعها تؤكد أننا نسير على خُطى آباء الكنيسة الأوائل إلى يومنا هذا.

الرب يعوِّض أبانا الحبيب القمص **تادرس يعقوب ملطي** على محبته وتعبه في مراجعة هذا الكتاب القَيّم, الرب يديم كهنوته وعطاءه للكنيسة, ويمتعه بالصحة

والعافية, ويعوِّض أبانا الراهب الحبيب الذي قام بترجمة هذه النصوص المُنتقاة, ويجعلها سبب بركة لكثيرين. بشفاعة كُلِّية الطهر العذراء كل حين والدة الإله القديسة مريم, وشفاعة أبينا القديس العظيم الأنبا أنطونيوس شفيع ديرنا العامر, وشفاعة قديسي هذه البرية, أنبا بولس البسيط, وأنبا مرقس الأنطوني, وأنبا يوساب الأبح, وأبونا الراهب القديس يسطس الأنطوني, وكل مصاف القديسين. بصلوات أبينا صاحب القداسة البابا الأنبا تواضروس الثاني, ولربنا المجد الدائم إلى الأبد آمين.

عيد التجلي.	الأنبا يسطس
13 مسرى 1730ش	أسقف ورئيس دير القديس العظيم الأنبا أنطونيوس
19 أغسطس 2014م	بالبرية الشرقية بالبحر الأحمر
صوم السيدة العذراء.	

جاذبية كتابات العلامة ترتليان

من آباء القرن الثاني الميلادي، غالبًا ما قَبِل الإيمان المسيحي متأثرًا ببطولة الشهداء المسيحيين بروما وعمل الله الفائق في حياة المسيحيين. كتاباته قبل انحرافه إلى المونتانية جَذَّابةٌ للغاية، تكشف عن مدى جِدِّيته في الإيمان والسلوك وتكريس طاقاته ومواهبه للشهادة للإنجيل. وقد أثرى المكتبة اللاتينية بكتاباته، ويحسبه كثيرٌ من الدارسين أنه مؤسس اللاهوت في الكنيسة الغربية.

هاجم بشدة المسارح والانضمام إلى الجيش والفلسفة، حاسبًا هذا كله انحرافًا نحو العبادة الوثنية. قاوَم الزواج الثاني بعد موت الزوجة الأولى, ودافع عن الكنيسة ضد الوثنية وكثير من الهرطقات, وانتقد بعض الكهنة في كل المستويات حتى حسبهم نفسانيين لا روحانيين.

في آخر حياته قاوم الكنيسة وانتقدها بعنفٍ، وانضم تدريجيًّا إلى المونتانية،[1] وبعد فترةٍ انفصل عنهم وصار له تلاميذ يحملون اسمه. استطاع القديس أوغسطينوس أن يجتذبهم إلى الانضمام للكنيسة.

لجاذبية كتاباته قَبل تركه الكنيسة لايزال الكثيرون يقتبسون من كتاباته.

في العمل الذي بين أيدينا قام أبونا الحبيب بترجمة خَمس مقالاتٍ رائعة، تخرج من قلبٍ جادٍ وعميق, خاصة في تفسيره لكلمة الله.

القمص تادرس يعقوب ملطي

[1] مؤسسها مونتانوس, ادَّعى أنه آخر نبي عظيم أسس المدينة السماوية.

مُقدِّمة عامة

بين يديك أيها القارئ العزيز خمسة نصوص من أعمال العلَّامة "ترتليان"، وكُلها كُتبت في فترة انتمائه للإيمان السليم، أربعة نصوص منها تندرج تحت اسم "الأعمال النسكية والأخلاقية"، وهي نصوص (التوبة، الصبر، الصلاة، إلى الشهداء)، أما نَص المعمودية فيندرج تحت ما يُسمَّى بـ (الأعمال الجدلية).

ورغم ابتعاد "ترتليان" عن الإيمان الأرثوذكسي في آخر حياته، إلا أن الكنيسة مازالت تعتبره من الكُتَّاب الكنسيين، ولا تُنكِر وجود الكثير من التعاليم المفيدة في أعماله، وتقبل الكنيسة كل ما يتفق مع عقيدتها الأرثوذوكسية السليمة، ومازال الكثيرون من معلمي الكنيسة يستشهدون بالكثير من أقواله. لذلك, تُطلِق عليه الكنيسة لقب "علَّامة"، مثلما تطلق كذلك نفس اللقب على "أوريجانوس".

إن الكنيسة لا تُجامِل المُخطِئ ولا تراعي الوجوه، بل تواجههم بكل قوة، سواء بالمجادلة والتعليم والنصح، أو بالحرمان إذا استمرَّ على فِكره. كما أن الكنيسة لا تعترف بعصمة أحدٍ بصفته الشخصية، ولا تؤمن بالآراء الذاتية الخاصة، لكنها تؤمن بالتقليد الكنسي الشامل والمتفَق عليه.

لقد قمت بترجمة هذه النصوص من الجزء الثالث من مجموعة "آباء ما قبل نيقية", مع التعليق على آراء "ترتليان" الشخصية في هوامش النصوص، والتعليق أيضًا على ما قد يكون مخالفًا لتعاليم الكنيسة, أو حذفه إذا لزم الأمر. ولقد آثرت كتابة الآيات التي ذكرها "ترتليان", مِن الترجمة العربية البيروتيَّة المتداولة بين أيدينا للتسهيل على القارئ العزيز، لأن "ترتليان"– كأغلب آباء الكنيسة – كان يستشهد في معظم أعماله بآيات الترجمة السبعينية.

وإن كانت هذه النصوص ليست بدرجة ما كتبه معلمو كنيستنا العظام، الذين كتبوا أعمالهم باليونانية في القرن الرابع والخامس، إلا أنها ستكون إسهامًا متواضعًا

لخدمة محبي الآبائيات، ولخدمة الكنيسة عامةً.

الرب يعوض كل من تعب معي في كتابة ومراجعة وتقديم هذا العمل، وأخُص بالشكر الجزيل, أبانا المحبوب **القمص تادرس يعقوب ملطي,** الذي ساعدني كثيرًا وشجَّعني, الرب يديم عطاءه للكنيسة.

بصلوات أبينا **صاحب القداسة البابا الأنبا تواضروس الثاني**، والذي لا يكُف عن تشجيع الرهبان على الدراسة والعلم، وشريكه في الخدمة الرسولية أبي رئيس ديرنا العامر، دير القديس العظيم الأنبا أنطونيوس، **نيافة الحبر الجليل الأنبا يسطس** مُحب أولاده، ولربنا المجد الدائم إلى الأبد. آمين

عيد ختان مخلصنا الصالح.

6 طوبة 1730ش

14 يناير 2014م

المترجم

مَن هو العلَّامة ترتليان؟

يُعتَبر "ترتليان" أو (ترتليانوس) هو مؤسس الأدب المسيحي اللاتيني، ويُعتبر هو والقديس أوغسطينوس أهم من كتبوا باللاتينية، كما يعتبره البعض (مؤسس اللاتينية الكنسية)، ولا يوجد مِن عُلماء الغرب مَن كان في نفس مستواه العلمي والدراسي. فقد كان مُلمًّا بالفلسفة ومدارسها وتواريخها. وكان عجيبًا في قدرته على الإقناع. وكان أول مَن كَتب في الدفاع عن المسيحية باللاتينية، لأن كل من سبقوه في عِلم الدفاع كتبوا باليونانية، مثل "أرستيدس"، والقديس "يوستينوس الشهيد"، و"أثيناغوراس"، و"أوريجانوس"، و"تاتيانوس".

ونظرًا لمكانته العظيمة في ذلك الوقت، كان القديس "كبريانوس" يقرأ له دومًا، ولا يدَع يومًا يمُر دون أن يقرأ شيئًا من كتاباته، وكان يقول لتلميذه: "أعطني المُعلم", إشارة إلى "ترتليان".

نشأته:

اسمه بالكامل "كوينتوس سبتيموس فلورنس ترتليانوس". وُلد في عائلة وثنيّة ما بين عامي 155م و160م في مدينة قرطاج بتونس، وكان والده قائد مئةٍ في الجيش الخاص بالوالي الروماني. تعلَّم اللغة اللاتينية منذ نشأته، وتعلم الخطابة، كما درس اليونانية وأتقنها نطقًا وكتابةً، وتعلم فنون الفلسفة والطب، وبالأخص القانون. سافر إلى "روما" في شبابه ليكمل دراسته، وقضى فيها أكثر سنوات عمره إثمارًا، وبعد دراسته اشتغل بالمحاماة، ثم عاد إلى قرطاج بين عامي 193م و195م.

إيمانه:

حدث تحوُّلٌ كبيرٌ في حياته بعد عودته إلى إفريقيا، إذ أصبح مسيحيًا. ورغم أن أسباب اعتناقه المسيحية غير معروفة، لكن من الواضح من كتاباته أنه تأثر بمشاهد البطولة التي أظهرها الشهداء المسيحيون في "روما"، وبالمعجزات التي كانت تتم على أيدي المسيحيين في تلك المدينة, ثم بعد اهتدائه إلى المسيحية، كَرَّس حياته للدفاع عن إيمانه الجديد بكل قوةٍ وحماسةٍ حتى النهاية.

يؤكد القديس "إيرونيموس" (جيروم) أنه رُسم كاهنًا، وأن هذه الرسامة جرَت بعد رجوعه من روما مباشرة، لكن هذا الأمر غير مُدعَّم تاريخيًا حتى الآن.

في جميع الأحوال، سواء كان قد رُسم كاهنًا أم ظل علمانيًا، فإنّه سخَّر كل عِلمه ونشاطه لخدمة المسيحية والدفاع عنها ضد البدع، حتّى آخر لحظة في حياته.

ابتعاد "ترتليان" عن الكنيسة:

مرَّ "ترتليان" بأزمة حادة مع الكنيسة فيما بين عامي 203م و212م، وابتعد شيئًا فشيئًا عن الكنيسة. هذه الأزمة لا يعرف المؤرخون تفاصيلها، وحتى هو نفسه لم يتحدث عنها في مؤلَّفاته. لكن من المعروف أن آراءه تطورت مع الوقت، واتجهت نحو المونتانية ذات الصبغة النبوية.

"**المونتانية**" هي بدعة أسسها شخص يدعى "مونتانوس" كان ينادي بأن الوحي لا ينقطع من العالم، بل هو مستمر في شخصه – أي أن "مونتانوس" هو الوحي – الذي هو "الباراقليط" أو المعزي الذي يتكلم الروح القدس من خلاله للكنيسة، وأن المسيح قريب على الأبواب، وعلى الكنيسة أن تبتعد عن العالم وتترقب قدوم المسيح. ومادام يعتقد أنه الروح القدس، فهو وحده الذي يستطيع قبول الساقطين إلى أحضان الكنيسة وليس الأساقفة، لأنهم على حد قوله: "تنقُصهم قيادة

الروح القدس".

يقول المؤرخ "يوسابيوس" القيصري إن سبب ظهور هذه البدعة هو تأثر "مونتانوس" حين اهتدى إلى المسيحيّة بعبادة "قيباليس" إلاهة الخصب، فاعتبر نفسه "أُرْغُنَ" الروح القدس، وأنّه يحمل وحيًا جديدًا يتفوق على وحي التقليد والكتابات الرسوليّة. لهذا رفضت المجموعات المرتبطة بهذا الانبعاث الروحي سُلطة الأساقفة المَحليين المتعلّقِين بالتقليد القديم، ولكن أصحابها بَقُوا في الكنيسة وحاولوا أن يُدخِلوا إليها التقشّف والتقوى.

حارب أساقفة "أسيا" هذا التيار، لكنه انتشر في الغرب، فوصل إلى "ليون" بفرنسا, و"روما", ثم إلى "قرطاج". استطاعوا أن يربحوا "ترتليانوس" حوالي سنة 207م، ثم أسس هو نفسه جماعة منشقّة.

من الثابت أنه منذ ذلك التاريخ تقريبًا، أخذ يتحدث بإعجابٍ ملحوظٍ عن عمل الروح القدس في الكنيسة، وعن الأنبياء والرؤى. كما بدأ يُثني على الممارسات الزُهدية الشديدة عند الجماعات المونتانية في ذلك الزمن. كان ينتقد "التسامح" الذي وجده في الكنيسة، فيما يختص بلباس النساء وحجاب العذارى والزواج الثاني والصيام, بل ذهب فيما بعد إلى أقصى الحدود في انتقاد الكنيسة ليميِّز أعضاءها الذين أسماهم بـ "النفسانيّين"، عن "الروحانيّين" الذين حصلوا على أنوار الروح القدس المحفوظة.

وفي حوالي عام 213م فَقد ترتليان كل اتّزان في علاقته مع الكنيسة، وكان السبب الظاهر هو قبول بعض الجنود المسيحيين لـ "إكليل الغار" بحسب التقاليد المعمول بها في الاحتفال المُسمى "دوناطيوم". وانتقد كذلك تشجيع الأساقفة لهرب كثير من المسيحيين في أثناء الاضطهادات، كما اعتبر أن انخراط المسيحيين في وظائف الدولة يجعلهم – في نظره – متواطئين مع عبادة الأوثان.

كل هذه الأشياء جعلت "ترتليان" ينتقد الكنيسة. ففي رأيه، لا مجال للحلول الوسط، إذ على المؤمن أن يختار بين الله والعالم، ولا توجد حلول وسط بين

الفضيلة والرذيلة. ولذلك رأى أن الكنيسة – بوضعها الذي وصفناه – أصبحت مكانًا لا يُؤَمِّن خلاصه.

نهاية حياته:

لزم "ترتليان" الصمت في آخر حياته, فلمَّا تقدَّم في السن تعب من الجهاد، وكان يخرج بين الحين والحين عن صمته ليوجِّه نقدًا لاذعًا إلى الكنيسة. يرجِّح المؤرّخون أن آخر كتاب وضعه يرجع إلى عصر البابا "كلّسْتُس" (217م–222م)، ورغم أننا لا نعرف تاريخ وفاته على وجه الدقة، لكن لابد أنه كان بعد عام 220م.

وقد قال القديس أوغسطينوس إنه ترك مجموعة صغيرة من أتباعه تسمَّت على اسمه، وظلَّت حيَّة حتى بداية القرن الخامس، واستطاع أوغسطينوس نفسه أن يضم هذه المجموعة إلى حضن الكنيسة الأرثوذكسية.

طِباعه، وسِمات أسلوبه:

كان متطرفًا في مواقفه بشكلٍ لا يعرف حدودًا. فحينما كان يقتنع بفكرة، كان يتابعها إلى آخر مدى بدون مراعاةٍ لمتطلّبات الواقع، فكان يعتبر ألّا وجود لِحدٍّ وسط بين الخير والشر، وبين الحقيقة والضلال. وعندما كان يكتشف أنّه وقع في خطأ ما، لم يكن يتردد في حرق كل ما صنعه حتى ذلك الوقت.

وعندما اهتدى إلى المسيحية، هاجم الوثنيين بشكلٍ شديدٍ، كما هاجم اليهود والهراطقة. وهذا التطرُّف في المواقف جعله عديم الصبر وكثير المبالغة في مواقفه، وكثير التناقضات في أفكاره.

أمَّا عن أسلوبه، فقد كان فصيح الكلام وقوي الأسلوب أكثر من أي أحدٍ من معاصريه، وكانت لديه الأدوات اللازمة لذلك لأنه درَس الأساليب الأدبية في

المدارس، واستخدم كل مصادره في اللغة والجدل والبلاغة. لم يكن يتقيَّد بقواعد اللغة، فكان يبتدع الكلمات الجديدة ليُعبِّر عن فكرته. ولكونه قد درس القانون، لم يتردد في استخدام جميع الحجج القانونية التي كانت في جعبته.

أمّا مؤلفاته, ففهمها صعبٌ للغاية، رغم أنه كان يتمعّن في كتابة الجُمل القصيرة المُفعَمة بالمعاني والدلالات، وربما يكون هذا هو ما أدّي إلى الشعور بغموض المعنى. ويتميز "ترتليان" بأنه كاتبٌ عظيمٌ، وهو الذي نَصَّر وطوَّع اللغة اللاتينية لخدمة المسيحية في نهاية القرن الثاني الميلادي, ويتميز أسلوبه أيضًا بكثرة استخدام الأسئلة الاستنكارية، وطريقة السخرية.

لقد كان مُلمًا بالكتب المقدسة بشكلٍ كبير, مما جعله يكتب ويستشهد بآياتٍ كثيرة منه. ومع ذلك، فقد كان يمزج بين الآيات أحيانًا، وأحيانًا أخرى كانت تختلط عليه أماكن ومواقف الكتاب المقدس نفسها. كما كان يستشهد كثيرًا بأمثلةٍ من واقع الحياة الرومانية، أو من التاريخ العالمي عامةً.

مؤلَّفاته:

يُقسِّم المؤرخون مؤلَّفات "ترتليان" إلى ثلاث مراحل تبعًا لفترات حياته:

أولاً: فترة انتمائه إلى العقيدة الأرثوذكسية السليمة:

وقد كتبها بين عامي 197م و206م. وهي:

1- إلى الشهداء: (197م - 203م) وفيه يتوجّه ترتليان إلى المسيحيين المسجونين ليحثّهم على الاحتفاظ بالسلام فيما بينهم وعلى تحمل الألم بشجاعة لأجل المسيح.

2- إلى الأمم: (197م) كتابٌ دفاعيّ مكرَّس لفضح جرائم الوثنيين، ولدحض العقائد التي تنادي بتعدد الآلهة.

3- الدفاع: (نهاية عام 197م)، وهو موجَّه إلى حكام الأقاليم، وخاصة حاكم

إقليم "إفريقيا". ويبرهن فيه بالقانون أن الإجراءات المتخَذة ضد المسيحيين غير قانونية وظالمة، ويُعتبر مِن أهم مؤلفاته.

4- المسرح: (200م - 202م) يدين فيه المسرح باِسم الأخلاق المسيحية، كما يدين كل مَن يشاهد المسرح، سواء ألعاب السيرك أم المشاهد المسرحية الأخرى، ويعلن أن هذه الأشياء لا أخلاقية، ومليئة بالمعتقدات الوثنية.

5- ضد الهراطقة: (حوالي عام 200م) ويستعرض فيه وسائل محارَبة البدع الخارجة على المسيحية.

6- الصلاة: (198م - 200م) وهو يتكلم عن الصلاة الربانية، ثم يناقش الصلاة وأهميتها، ويناقش بعض العادات الخاطئة المتعلقة بالصلاة.

7- المعمودية: (198م - 200م) يتعرض فيه للمشاكل التي تدور حول العماد.

8- الصبر: (200م - 206م) وهو يُعرِّفُ الصبر المسيحي, وقد أوضح الاستعداد الذي يجب أن يكون عليه كل مسيحي كي يتحمَّل الألم من أجل الله.

9- التوبة: (203م) يتحدث فيه أولاً عن فضيلة التوبة، ثم عن التوبة التي تُعِد الشخص لاستقبال العماد، ثم عن التوبة التي تمنحها الكنيسة للمُعمَّد المذنب والتائب.

10- الزينة النسائيّة: (200م - 206م) يتحدث فيه عن زينة النساء، ويحارب فيه الأشكال المختلفة لهذه الزينة.

11- الزواج الثاني: (200م - 206م) وفيه يكتب إلى زوجته طالبًا منها ألَّا تتزوج مرةً أخرى إذا مات زوجها. ورغم أنه يَقبل وجود زواج ثانٍ، إلا أنه لا يفضِّله، ويعتبره ضعفًا بشريًا.

12- الرد على هرموجين الغنوصي: وفيه يُثبِت أن العالم له بداية، وأن الله هو خالقه، وأن المادة خيِّرة.

13- الرد على اليهود: (200م - 206م) وفيه يدل على أن الناموس القديم

المَبني على العدل والانتقام يجب أن يختفي ويترك المكان للناموس الجديد، ناموس الحب الذي سبق وتحدث عنه الأنبياء.

14- الرد على إيلياكس (مِن أتباع مرقيون): (200م – 206م) وفيه يُفنِّد نظريّة مرقيون.

ثانيًا: الفترة شِبه المونتانيّة:

وكان "ترتليان" يتأرجح فيها بين الإيمان السليم ومذهب المونتانية:

1- إلى العذارى: (حوالي 206م) وفيه يأمر العذارى بضرورة لبس غطاء الرأس. ويُعتبر هذا الكتاب أول علامة تحول لترتليان عن الأخلاق المسيحية المعتدلة.

2- الرد على مرقيون: عبارة عن خمسة أجزاءٍ بدأها عام 200م وأنهاها في 211م.

3- الدفاع عن نفسه: كتبه للدفاع عن نفسه، لأنه لمّا ارتدى "التوجا" (الرداء الخاص بالفلاسفة الرومانيين) أخذ البعض يستهزئون به، فكتب يدافع عن نفسه.

4- الرد على "فالنتين": (209م – 211م) وفيه يدحض غنوصيّة "فالنتين".

5- النفس: كتب فيه عن طبيعة النفس وأصلها، وعن الموت، واستلهم أفكاره من الفلاسفة اليونانيين، خاصةً الرواقيين.

6- تجسد المسيح: (209م – 211م) كتبه ردًا على البدعة الظاهرية التي أنكرت أن للمسيح جسدًا.

7- قيامة الأجساد: (209م –211م) فيه دلَّ على صحة قيامة الأجساد، مستنِدًا إلى البراهين العقلية والكتابية.

8- عظة إلى "كاستِتانيس": كَتبه لصديقٍ له بعد وفاة زوجته، مُحرمًا عليه التفكير في الزواج مرة أخري.

9- الإكليل: (211م) كَتبه بمناسبة رفض جندي مسيحي حمل إكليل الغار،

كما جَرَت العادة في حفل توزيع الهدايا العسكرية. فوُضِع العسكري في السجن بسبب رفضه الأوامر العسكرية، وكان أغلب المسيحيين والأساقفة قد أدانوا موقف هذا الجندي، واعتبروه متشددًا طالما أنه لم يقدم البخور أو يسجد للآلهة. وهذا الكتاب يدافع ترتليان بشدَّة عن موقف هذا الجندي الشجاع، ويقول بأن الخدمة العسكرية في ظل الإمبراطورية لا تتفق مع معتقدات المسيحيين.

10- عبادة الأوثان: (211م – 212م) يعالج فيه العلاقات بين المسيحيين والوثنيين، إذ يحرِّم فيه على المسيحيين صناعة التماثيل التي تستخدم في عبادة الأصنام، والتجارة في هذه التماثيل، وهو في هذا الأمر محقٌّ ولا غبار عليه. إلَّا أنه حرّم أيضًا على المسيحيين الانخراط في سلك الجُندية، وحرَّم التجارة مع الوثنيين، وممارسة الوظائف الرسمية في الحكومة، كما حرَّم الدخول في المدارس الحكومية. وهكذا دعا "ترتليان" المسيحيين إلى العُزلة التامة بشكلٍ قاسٍ.

11- الردّ على العقرب: (211م – 212م) وهو موجه ضد الغنوصيين الهراطقة الذين أنكروا ضرورة الاعتراف بالإيمان حتى الاستشهاد.

12- إلى سكاپولا: (212م) كتبه بعد حادثة كسوف الشمس التي تمت في 14 أغسطس 212م. وهو عبارة عن رسالة وجهها إلى الحاكم الروماني المسئول عن مقاطعة "إفريقيا"، وذلك بسبب اضطهاده المسيحيين، وفيه يهدده بغضب الله.

ثالثًا: الفترة المونتانيّة في حياة ترتليان:

1- الهروب في أثناء الاضطهاد: (213م) وهو أول ما كتبه بصفته المونتانيّة. ويهاجم فيه بشدة هروب المسيحيين في أوقات الاضطهادات، وينتقد استخدامهم الرشوة للقضاة الوثنيين ليعيشوا في أمان دون مضايقات، ويؤكد فيه على أن الاستشهاد واجب، وقبوله ضروري على المسيحي.

2- الردّ على "براكسياس": (بعد عام 212م) يهاجم فيه بشدة عقيدة المونارخيانيّة والشكلية (الموداليزم) التي وَضعت عقيدة الثالوث في خطر، وشوَّهت التعليم المسيحي القائل بوحدانية الله في ذاته وصفاته الذاتية الثلاثة، وفيه يؤكد على

وحدانية الله، ووجود ثلاثة أقانيم إلهية متساوية في جوهرٍ واحدٍ، وذات إلهية واحدة غير متجزئة.

3- الزواج الواحد: (بعد عام 213م) كَتبه إلى زوجته، ويُحرِّم فيه الزواج الثاني بعد وفاة أحد الزوجين, وهو الأمر الذي رفضته الكنيسة.

4- في الصيام: ردًا على النفسانيّين, وينتقد فيه المسيحيين الأرثوذكسيين غير المتمسكين بتقاليد الصيام، ويعرض عقيدة الروح القدس المونتانيّة عن الصيام.

5- استشهاد القديستين (بربتوا وفيليسيتي) "دائمة وسعدى": رغم أن البعض يشكك في أنه هو الذي كتبه.

6- وفي آخر مؤلَّفاته هاجم شخصًا، يُعتقد أنه أسقف، لأن هذا الشخص قَبِل توبة الناس الذين ارتكبوا خطية الزنا بعدما تابوا وقبلوا التأديب الأخلاقي اللائق بهذه الخطية. والكتاب يتحامل بعنفٍ لا مثيل له على هذا الشخص طِبقًا للمعتقد المونتاني، الذي لا يقبل توبة بعض الخطايا كعبادة الأوثان والزنا، حتى وإن تاب مرتكبها.

المترجم

إلى الشهداء

للعلَّامة ترتليان

مُقدِّمة

كُتب هذا العمل ما بين عامَي 197م و203م، وفيه يوجِّه ترتليان الحديث إلى المسيحيّين المسجونين بغرض التقديم للمحاكمة بتهمة اعتناق المسيحية، ليحثّهم على الاحتفاظ بالسلام والمحبة فيما بينهم، وعلى تحمُّل الألم بشجاعة لأجل المسيح. وهو يحاول أن يبيِّن لهم أنهم مغبوطون من جميع النواحي، فهُم في الوقت الحاضر (أي في السجن) قد تخلصوا من المناظر الوثنية المُعثِرة، كما أنهم هربوا من سجن العالم إلى مكانٍ أفضل لحياتهم الروحية.

ثم يُذَكِّرهم بالأكاليل المُعَدة لهم كجنود للمسيح, ويدعوهم للاحتمال حتى النهاية، مثل الجندي الذي لا يمكن أن يهتم بالراحة الجسدية وقت الحرب. ويعطيهم أمثلة من واقع الحياة في ذلك الوقت، كالمصارعة الرومانية، والرياضات الأخرى التي يبذل فيها المتبارون قصارى جهدهم لأجل الفوز، بل وحتى بعض العبادات الوثنية التي يضَحِّي الشباب فيها بتحمُّل الألم، لأجل رضى الآلهة عنهم.

كما يذكر أيضًا بعض الأمثلة العامة لأناس ماتوا لأجل أغراضٍ عالمية أو أخلاقية، كيما يغاروا منهم إذا ما اضطربوا وخافوا, ثم يوضِّح لهم أنهم كانوا من الممكن أن يَلقوا حتفهم فجأة، سواء بسبب وحشٍ مفترس من وحوش البرية، أو بسبب اللصوص، أو بسبب النيران.

أخيرًا، رغم أن النص صغير، إلا أنه أحدث صدىً كبيرًا بين القدماء على مرّ التاريخ، ونال إعجاب الكثيرين. كما أن احتمال المسيحيين للآلام كان هو السبب في إيمان ترتليان، كما يظن الكثيرون.

في هذا النص يؤكد لنا العلَّامة ترتليان أن:

1- الوسيلة الحقيقية لمحاربة الشيطان هي محافظة المؤمنين على السلام فيما بينهم، والشعب يتشجع حينما يرى السلام يعُم الكنيسة، وبالأخص بين الإكليروس.

"لأن السلام فيما بينكم هو الحرب معه." (الفصل الأول)

2- العالم بالنسبة للمؤمن هو سجنٌ للروح، أما السجن والجَلد والاستشهاد فهم في الحقيقة شهوة المؤمنين. والمؤمن الحقيقي يعتبر السجن مثل البرِّية الجوانية المناسبة للخلوة والتأمل. "يقدم السجن للمسيحي ما قدمَته البرِّية للأنبياء، لذلك دعونا نطرح لفظ (سجن)، ونسمّيه مكان الخلوة". (الفصل الثاني)

3- الجهاد الروحي يحتاج إلى الجدِّية والرجولة الروحية، والمسيحي هو جندي في جيش الرب، والجندي لا يجب أن يبحث عن الراحة أثناء الحرب. (الفصل الثالث)

4- يمكن للإنسان المسيحي أن يتعلم حتى مِن غير المؤمنين، والله يسمح بذلك لتحفيز المؤمنين، ولإشعال الغيرة في قلوبهم. "إن الرب لم يسمح بهذه الأشياء في العالم بدون سبب أيها المباركون، بل لأجل تحفيزنا الآن، وأيضاً لأجل خزينا في ذلك اليوم إذا خفنا من التألم لأجل الحق، الذي هو خلاصنا. في حين أن الآخرين بدافع الزهو قد طلبوه بلهفةٍ لأجل هلاكهم!" (الفصل الرابع)

المترجم

إلى الشهداء

الفصل الأول

أيها المباركون المختارون للاستشهاد، إلى جانب المعونة التي تُقدِّمها سيدتنا وأُمّنا الكنيسة مِن ثدييها الكَريمين، والتي يقدِّمها كل أخٍ مِن دَخله الخاص لأجل احتياجاتكم الجسدية في السجن، اقبلوا مني بعض المساهمة لأجل مساندتكم الروحية. لأنه ليس حسنًا أن يأكل الجسد وتتضور الروح جوعًا، بل إن كان هذا الضعيف يُعتنى به باهتمام، فبالأولى يجب ألَّا يُهمل ما لايزال أضعف.[1]

ليس لأنني مستحق أن أنصحكم بصفتي الشخصية، لكن لأنه ليس فقط المدرِّبون والمراقِبون، بل وحتى عديمي الخبرة – بل وكل من أرادوا ذلك دون أن يَطلب منهم أحدٌ – اعتادوا أن يحفِّزوا المصارعين الأكثر براعةً بصيحاتهم عن بُعد. ومِن أقل حشدٍ للمتفرجين تأتي الاقتراحات المفيدة في بعض الأحيان.

فلذلك أيها المباركون، أول كل شيءٍ لا تُحزنوا الروح القدس[2] الذي دخل السجن معكم، لأنه لو لم يكن قد دخل معكم إلى هناك, لَما كنتم هناك اليوم. فهل أنتم تبذلون إذًا كل جهدكم لأجل الاحتفاظ به؟ فلأجل ذلك إذًا, دعوه يرشدكم إلى ربكم.

في الحقيقة، إن السجن أيضًا هو بيت الشيطان[3] الذي يُبقي فيه عائلته، لكنكم قد أتيتم إلى داخل جدرانه لأجل هذا الغرض بالذات، أن تطأ أقدامكم على ذلك

---

[1] أي أن ما يتعب المسجونين ليس هو عناء الجسد، بل بالأكثر التعب النفسي، والروح المعنوية. {المترجم}

[2] (أفسس4: 30)

[3] حيث أن السجن للصوص والزناة والمجرمين، وكلهم من أتباعه.

الشرير في مكانه المفضل[1].

أنتم بالفعل قد غلبتموه تمامًا في حربٍ مُعَدَّة، فلا تدَعوا له أي حقٍ في أن يقول لنفسه: "إنهم الآن في منطقة نفوذي، سوف أغويهم بضغائن دنيئة، وبارتدادات وخصومات بينهم". دعوه يهرب من جوارِكم ويتوارى عنكم إلى هاويته. دعوه يتضاءل ويهمد كحيَّة أمسكها الحاوي، أو أُرغمت على الخروج مِن وكرها[2].

لا تمنحوه النجاح في مملكته بخلافكم مع بعضكم البعض، لكن دعوه يجدكم مُسلَّحين ومُحَصَّنين بالاتفاق. لأن السلام فيما بينكم هو الحرب معه.[3] فبعض الذين لا يجدون هذا السلام في الكنيسة، اعتادوا أن يطلبوه في الشهداء المسجونين. لذلك، يجب عليكم أن تجعلوه يسكن بينكم، وتعزِّزوه, وتَحموه، فربما يمكنكم أن تمنحوه للآخرين.

الفصل الثاني

ومِثلما قد رافقكم أقرباؤكم حتى باب السجن، رافقتكم أيضًا عوائقٌ أخرى للروح. فإن كنتم مِن تلك اللحظة قد انفصلتم عن العالم، فكَم بالأكثر يكون انفصالكم عن أسلوب الحياة العالمية وكل أعمالها؟!

لا تدَعوا هذا الانفصال عن العالم يزعجكم، لأننا لو اعتبرنا العكس، أي أن العالم هو نفسه السجن الحقيقي، فسوف ندرك أنكم قد خرجتم من سجنٍ, بدلاً من كونكم قد دخلتم سجنًا.

---

[1] أي في عُقر داره.

[2] حيث كانوا يملؤون مكانها بالدخان، فتخرج إلى خارج، ثم يتم اصطيادها وقتلها.{المترجم}

[3] ولذلك تصلي الكنيسة أوشية لأجل سلام الكنيسة، مباشرة بعد حلول الروح القدس في القداس. لأن السلام بين أعضاء الكنيسة، بدءً مِن "الإكليروس" إلى أصغر طفل، هو الحرب ضد الشيطان. {المترجم}

إن العالم فيه الظلام الأكبر[1] الذي يُعمي قلوب الرجال. العالم يفرض القيود الأكثر إيلامًا، والتي تُقيِّد أشد أرواح الرجال، فإن العالم يَزفر بأسوأ النجاسات – أي الشهوات البشرية. العالم يحوي أكبر عددٍ من الجرائم التي هي جرائم الجنس البشري كله. وفي النهاية يترقب الدينونة، ليس من الوالي, بل من الرب.

فلذلك أيها المباركون، اعتبروا أنفسكم قد نُقلتم من سجنٍ إلى ما يمكن أن نسميه دار الأمان. إنه ممتلئٌ بالظلام، لكن أنتم أنفسكم النور.[2] فيه قيود، ولكن الله قد حرركم.[3] فيه روائح كريهة، لكنكم رائحةٌ ذكيةٌ.[4] تنتظرون القاضي كل يومٍ، لكنكم ستدينون القضاة أنفسهم.[5] إن مَن يَحزن هناك, هو مَن ينظر إلى مُتع العالم.

الإنسان المسيحي قد رفض العالم خارج السجن، لكنه قد رفض سجنًا أيضًا[6] داخل السجن. ليس مهمًا أين مكانكم في العالم يا مَن لستم منه.[7] فإذا كنتم قد فقدتم فقدتم بعض متع العالم، فهذه هي طبيعة التجارة, أن تكابد خسارةً حاضرةً حتى يكون الربح فيما بعد أعظم.

حتى الآن أنا لم أذكر شيئًا عن مكافآت الرب التي يدعو إليها الشهداء، لكن دعونا مؤقتًا نقارن بين حياة العالم وحياة السجن، ولنرى إن كانت الروح لا تَجني في السجن أكثر مما يخسر الجسد. لكن باهتمام الكنيسة وبمحبة الإخوة، فحتى الجسد هناك لا يخسر ما ينفعه، في حين أن الروح كذلك تنال فوائدًا عظيمةً.

---

[1] لأن السجن غالب يكون مظلمًا، فهو يريد أن يوضح أنه مهما كان السجن مظلمًا، فالعالم في الحقيقة أكثر ظلامًا.

[2] (مت5: 14)، (أف5: 8)

[3] (غل5: 1)

[4] (2كو2: 15)

[5] (1كو6: 2)

[6] أي أن مَن بالداخل قد خرج من سجنًا أيضًا (أي سجن العالم).

[7] (يو17: 16)

أنتم لستم مضطرين للنظر إلى الآلهة الغريبة، ولا للاصطدام بصِورها. لا تشتركون في الأعياد الوثنية، ولا حتى بمجرد الاختلاط الجسدي.[1] لَستُم متضايقين من الروائح النجسة التي للاحتفالات الدينية الوثنية، ولستم متألمين من ضوضاء العروض العامة، ولا من فظاعة وجنون وخلاعة المحتفلين,[2] ولا تقع أعينكم على المواخير وبيوت الدعارة. أنتم متحررون مِن مسبِّبات الخطية ومن التجارب والتذكارات الدنسة،[3] بل أنتم أحرارٌ الآن أيضًا من الاضطهاد.

يقدِّم السجن للمسيحي ما قدَّمته البرِّية للأنبياء، وحتى ربنا نفسه قضى الكثير من الوقت في الخلوة، حيث أمكنه أن يحصل على حُريةٍ أكبر للصلاة، حتى يمكنه أن يتخلص من العالم، وقد أظهر مجده للتلاميذ في خلوةٍ جبليةٍ كذلك.[4]

لِذا, دعونا نطرح لفظ (سجن) ونسميه مكان الخلوة. فبالرغم من أن الجسد مقيَّد، لكن كل الأشياء مُتاحة للروح. إذًا، طوفوا بالروح خارجًا, وتنزهوا, ولا تهبطوا[5] عند الممرات الظليلة أو المصفوفة بالأعمدة، بل في الطريق المؤدي إلى الله. كُلَّما سارت خطواتكم إلى هناك بالروح, كُلَّما كنتم بلا قيود. فلن تشعر القَدم بالقيود عندما يكون العقل في السماوات. إن العقل يسَع الإنسان بأكمله، ويحمله أينما يريد. لكن لأنه حيثما يكون قلبنا يكون كنزنا،[6] فلنجعل إذًا قلوبنا هناك، حيث كنزنا.

---

[1] أي بالزنا.

[2] وكلها من مظاهر العبادات الوثنية للكهنة والناس.

[3] "تذكار الشر الملبس الموت" من صلاة الصلح للقداس الباسيلي.{المترجم}

[4] في معجزة التجلي على جبل طابور (مت17: 1)، (مر9: 2)، (لو9: 28)

[5] بالروح.

[6] (مت6: 21)

الفصل الثالث

لنفترض الآن أيها المبارَكون أن السجن مُحزِن حتى للمسيحيين، لأننا دُعينا إلى معركة الله الحي منذ اللحظة الأولى لاستجابتنا للنصوص المقدسة. فلا يوجد جندي يخرج للغزو وهو مُحمَّل بالرفاهيات، ولا من يخرج للمعركة من حُجرته المريحة، بل من الخيمة الخفيفة الضيقة، حيث يجب أن يحتمل كل أنواع القسوة والخشونة والضيق.

وحتى في أوقات السِلم، فإن الجنود يُدرِّبون أنفسهم على الحرب بعناءٍ ومشاقٍ، ويتحركون حاملين السلاح، ويقطعون السهول، ويعملون في الخنادق، ويصنعون الدبابة.[1] إنهم مشغولون بالكثير من الأعمال الشاقة، وكل شيءٍ يكون بعرق الجبين. فلا تضطرب الأجساد ولا العقول إذا اضطرت للعبور من الظل إلى الأماكن المُشمِسة، أو من الحر إلى البرد القارس، أو من تغيير رداء السلم إلى لبس الدروع، أو من السكوت إلى الصراخ، أو من الهدوء إلى الضجيج.

بنفس الطريقة أيها المباركون، اعتبروا أي شيءٍ صعبٍ مما يصيبكم أنه تدريب لقواكم العقلية والجسدية. أنتم على وشك اجتياز جهادٍ نبيلٍ، حيث يقوم الله الحي بدور المراقب، والروح القدس هو مدربكم، والجعالة هي إكليلٌ أبدي ذو جوهر ملائكي. الجعالة هي المواطنة في السماوات, والمجد الأبدي.

لذلك, فإن سيدكم يسوع المسيح الذي مسحكم بروحه وقادكم بعيدًا إلى ساحة القتال، قد رأى أن ذلك حسنٌ لكم أن يأخذكم قبل يوم القتال من حياة الدِعة, وأن يفرض عليكم معاملة أصعب حتى تصبح قوَّتكم أكبر. لأن المصارعين أيضًا يُعزَلون إلى تدريب أكثر عنفًا كَيما تُبنى قواهم البدنية. إنهم يُمنَعون من الترف, ومن اللحوم اللذيذة والمشروبات المُبهجة. إنهم يُضغَطون ويُنهَكون ويُرهَقون، وكُلَّما كانت أعمال تدريباتهم التجهيزية أصعب، كُلَّما ازداد الأمل في الانتصار.

---

[1] وهي ستر خشبي كان الجنود قديمًا يسيرون تحته للوقاية عند مهاجمة القلاع. {المترجم}

لقد قال الرسول[1]: "أمَّا أولئك, فلِكي يأخذوا إكليلاً يفنى".[2] أما نحن، فمع رؤيتنا للإكليل الأبدي, ننظر إلى السجن كساحة تدريب. لأننا لأجل هدف الدينونة الأخيرة[3] نتقدم متدربين جيدًا بكثيرٍ من المحاولات، لأن الفضيلة تُبنى بالأتعاب، كما أنها تخرب بالانغماس الشهواني.

الفصل الرابع

ونحن تعلَّمنا مِن قول الرب أن الجسد ضعيفٌ والروح نشيطٌ،[4] لكن دعونا لا نتخذ معرفة الرب لضعف الجسد سببًا للراحة الباطلة. لأجل هذا السبب بالتحديد قد صرَّح أولاً بأن الروح نشيطٌ، حتى يُمكنه أن يبيِّن أيًا منهما يجب أن يخضع للآخر، أي أن الجسد يجب أن يخضع لطاعة الروح. فالضعيف يخضع للقوي، وبالتالي الأول يتقوى بالثاني.

دعوا روحكم تتكلم مع الجسد عن الخلاص الشامل. لا تجعلوها تفكر طويلاً في متاعب السجن، لكن في المصارعة والمعركة المهيأة لها.

ربما يخاف الجسد من السيف الذي لا يَرحم، ومن الصليب المرفوع عاليًا، ومن غضب الوحوش المفترسة، ومن عقاب النيران، ومن كل وسائل الرعب، ومن براعة الجلادين في التعذيب. لكن في المقابل، دعوا الروح تضع بوضوحٍ أمام نفسها وأمام الجسد، كيف أن هذه الأمور رغم كونها مؤلمة للغاية، إلا أن كثيرين قد احتملوها بهدوءٍ، بل وقد صارت تُشتهى بلهفةٍ لأجل الشهرة والمجد، ليس فقط بين

---

[1] بولس.

[2] (1كو9: 25)

[3] أو الحكم النهائي.

[4] (مت26: 41)

الرجال، بل والنساء أيضًا. لذلك أنتِ أيضًا أيتها المرأة المباركة,[1] قد تصبحين من المُعتَبرين بين بنات جنسِكِ.

يعوزني الوقت أن أُحصي واحدًا فواحدًا من الرجال الذين وضعوا نهايتهم بمحض إرادتهم.[2] أمَّا عن النساء، فهناك حالةٌ مشهورةٌ حدثت عن قريب، وهي قصة "لوكريتيا" (Lucretia) المُغتَصَبة، والتي غرزت السكين في جسدها أمام أهلها، حتى تحصل على المجد بسبب حبها للعفة. و"موكيَس" (Mucius) الذي أحرق يده اليمنى على المذبح حتى بفعلته هذه يظل مشهورًا. لقد سبقوا الفلاسفة.

هناك مثلاً "هيراكليتَس" (Heraclitus) الذي لطَّخ نفسه بروث البقر وحرق نفسه, و"إمبيدوكليس" (Empedocles) الذي قفز إلى داخل النيران في آيتنا (AETNA)، و"بريجرينَس" (Peregrinus) الذي ألقى نفسه وسط المحرقة الجنائزية منذ فترة ليست ببعيدة.

حتى النساء قد استخففن بالنيران. هكذا فعلت "ديدو" (Dido) خِشية أن تُجبَر على الزواج مرة أخرى بعد موت زوجها العزيز عليها جدًا. وهكذا فعلت زوجة "هازدروبال" (Hasdrubal) التي وقتما كانت "قرطاج" تحترق، والمدينة مسقط رأسها تَخرُب، اقتحمت النيران مع أولادها لكي لا ترى زوجها يتوسل تحت أقدام "سكيبيو" (Scipio). و"ريجالاس" (Regulus) قائد الجيش الروماني الذي أسره القرطاجيون، رفض أن يُطلَق سراحه مقابل عدد ضخم من القرطاجيين، مفضلاً أن يرُدّوه إلى الأعداء مرة أخرى، فحُشر داخل ما يشبه الصندوق، وطُعن بمسامير دُقت من الخارج، وكابد الصلب مرارًا كثيرة.

توجد امرأةٌ طلبت الوحوش المفترسة والحيات السامة بإرادتها، ألا وهي

---

[1] أية امرأة معترفة, أو في طريقها للاستشهاد.

[2] وهم شخصيات عادية من التاريخ، أنهوا حياتهم لأجل أهدافٍ عالميةٍ, أو أهداف نبيلةٍ, بعيدًا عن الدين. فبالأولى يجب على شهداء المسيح الذين يريدون إكليل الحياة الأبدية ألا يرهبوا الموت. {المترجم}

"كليوباترا" (Cleopatra). وهذه الحيات التي دفعت نفسها إليها حتى لا تقع في أيدي أعدائها, كانت أسوأ من الدب أو الثور.

وإن كان الخوف من الموت ليس أكبر من الخوف من العذاب، فمع ذلك خضعت العاهرة الأثينية للجلاد, حينما تعرضت للتعذيب على يد الطاغية لاشتراكها في مؤامرة، واستمرت في عدم خيانة شركائها. وفي النهاية، قضمت لسانها وبصقته في وجه الطاغية, حتى يقتنع بعدم فائدة تعذيباته مهما استمرت مُدتها.

إلى هذا اليوم، الجميع يَعلم ما هي عظمة الاحتفال الديني الكبير الذي يُسمى (The great Lacedemonian) أو (الجَلد)،[1] الذي طقسه الديني أن يُضرب الشباب الاسبرطي بالسياط أمام المذبح، بينما الآباء والأقرباء يُعضدونهم ويشجعونهم على الاحتمال بشجاعةٍ تامة، لأن تقديم الروح نفسها للألم يُحسب دائمًا أكثر شرفًا ومجدًا من تقديم الجسد.

فإن كان مقدار المجد الأرضي عاليًا هكذا، وقد فاز هؤلاء الرجال بالقوة العقلية والجسدية لأجل أن يُمتدَحوا من أتباعهم، فأستطيع أن أقول: "استهينوا بالسيف والنار والصليب، والوحوش المفترسة والعذاب, لأنه سيكون بالتأكيد مجرد معاناة طفيفة لأجل الحصول على مجدٍ سماويٍ ومكافأة مقدسة". وإن كانت قطعة صغيرة من الزجاج هي ثمينة هكذا، فكم تستحق اللؤلؤة الحقيقية؟ ألم نُدعى إذًا لفرحٍ أكثر؟ لأننا نُنفِق هذا كله من أجل الحق، بينما يفعل الآخرون ذلك لأجل الباطل.

---

[1] وهو احتفال ديني وثني يُجلد فيه الشباب كقربان للآلهة.

الفصل الخامس

والآن سأترك جانبًا دافع المجد.[1]

أنتم ترون نفس هذه القسوة ونفس هذه الآلام تحدث في المبارزة بين الرجال، وهم يعتبرونه حسالة مدوسة تحت الأقدام،[2] ليس لشيءٍ إلا لمجرد الزهو،[3] وهو في الحقيقة نوع من الأمراض العقلية.

فكم عدد الذين قدمهم الزهو بالأسلحة للسيف؟[4] إنهم بالفعل ينزلون لملاقاة الوحوش شديدة الافتراس لحب الشهرة والإعجاب بالنفس، ويتخيلون أنفسهم أكثر جاذبية بعضّات وآثار جروح المباراة. البعض باع نفسه للنيران بالجري لمسافةٍ معينةٍ برداءٍ مشتعلٍ، والآخرون يسيرون تحت سياط القنَّاصة بأقصى ما تستطيع أكتافهم تحمُّله.[5]

إن الرب لم يسمح بهذه الأشياء في العالم بدون سببٍ أيها المباركون، بل لأجل تحفيزنا الآن، وأيضًا لأجل خزينا في ذلك اليوم[6] إذا ما خفنا من التألم لأجل الحق الذي هو خلاصنا, في حين أن الآخرين بدافع الزهو يطلبونه[7] بلهفةٍ لأجل هلاكهم!

---

[1] لكي يتكلم عن دافع آخر لاحتمال العذاب عند البعض.

[2] أي أنها في نظرهم شيءٌ تافهٌ.

[3] أو التباهي والغرور.

[4] أي كم تسببت المبارزات في قتل المتبارزين بالسيف.

[5] وهي لعبة يجري فيها المتسابقون في المضمار بين مصارعي الثيران الذين يجلدون من في طريقهم ويفوز الأكثر احتمالاً للضربات. {المترجم}

[6] أي اليوم الأخير. ويقصد أن احتمال هؤلاء الناس للآلام لأجل أمور باطلة، سيديننا نحن في اليوم الأخير إذا كنا قد أشفقنا على أنفسنا من الألم لأجل إيماننا. {المترجم}

[7] أي طلبوا الألم بأنفسهم.

الفصل السادس

لننتقل مرة أخرى من أمثلة الاحتمال بثباتٍ - التي لها نفس الأسباب[1]- ونتحول إلى تأملٍ بسيطٍ لحالة الإنسان في ظروفه العادية, عسى أن نأخذ عبرةً من أشياءٍ تحدث لنا، سواء شئنا أم أبينا، وهي التي يجب أن نضعها نصب أعيننا.

كم من مرةٍ التهمت النيران الأحياء، وكم من مرةٍ مَزقت الوحوش المفترسة الرجال إربًا. ربما في غاباتها, أو في قلب المدن حينما استطاعت الهروب من أوكارها! وكم عدد الذين سقطوا بسيف اللص, وكم عدد الذين كابدوا موت الصليب على أيدي أعدائهم، بعد أن عُذِّبوا أولاً, وتعامل الناس معهم بكل أنواع الاستهزاء؟

قد يعاني الفرد على يد إنسانٍ، ما لا يتصور أن يعانيه على يد الله. من جهة هذه الحقيقة، فإن الحاضر يشهد حينما لقي الكثير من الأشخاص ذوي الشأن مصرعهم بسبب إنسانٍ،[2] وهو ما كان يبدو أمرًا غير متوقَّعٍ بسبب أصلهم أو شرفهم أو حالتهم الجسدية[3] أو سِنهم، سواء بالعذاب على يد هذا الإنسان إن كانوا قد تحالفوا ضده،[4] أو على أيدي أعداء هذا الإنسان إذا ما كانوا من مناصريه.

---

[1] أي الغرور والزهو.

[2] وهي واقعة تاريخية حدثت بعد هزيمة وانتحار شخصية تاريخية تُدعى "ألبينوس" (Albinus) في "ليونس" (Lyons), حيث عومل الكثير من طبقة الأعيان بقسوةٍ حتى الموت. {المترجم}

[3] الصحية، وهو ما يعني أنهم لم يموتوا بسبب المرض.

[4] أي أن يكونوا قد تآمروا على شخصٍ, ثم اكتُشفت مؤامرتهم, فنالوا العذاب على يديه.

الصبر

للعلَّامة ترتليان

مُقدِّمة

كُتِب هذا النص ما بين عامي 200م و206م, وهو يُعرِّف الصبر المسيحي على أنه وضع الاستعداد الذي يجب أن يكون عليه كل مسيحيٍ كي يتحمل الألم من أجل الله.

يدور النَص حول أهمية فضيلة الصبر، ويربط بينها وبين باقي الفضائل، كالطاعة والمحبة والتواضع والعفة والتسامح ونقاوة القلب والزهد، وحتى الإيمان نفسه. ويَعتبر أن عدم الصبر أصله مِن الشيطان، الذي أراد بدوره أن يَنقل رذيلة عدم الصبر إلى البَشر.

وفي المقابل, يَعتبر ترتليان أن الصبر صفة إلهية، وأن الرب يسوع نفسه هو القدوة والنموذج الذي نتبعه في ممارستنا وتمسُّكنا بالصبر.

يوضح النص كذلك أن الجسد والروح يشتركان في فضيلة الصبر، وأن تقصير أحدهما سوف يجعل الإنسان مُدان أمام الله، حتى وإن لم يَرى الناس إلّا تقصير الجسد.

يذكر النَص أمثلة مِن العهد القديم لقديسين برعوا في ممارستهم للصبر، مثل أيوب البار الذي سُر الله كثيرًا باحتماله للصبر دون تذمرٍ، ويتخيل منظره وكأنه يداعب الديدان الخارجة من جروحه، بينما الشيطان مغتاظ. يذكر كذلك "إشعياء" النبي، الذي كان صبورًا حتى لحظة استشهاده، واستمر ينادى بالتوبة والرجوع إلى الله.

مِن العهد الجديد يذكر ترتليان "استفانوس" الشهيد الأول الذي صبر على راجميه وطلب لهم الغفران، ويقارِن في النهاية بين الصبر الإلهي والصبر الوثني الشيطاني، الذي يجعل الإنسان يحتمل العار لأجل الأمور الزائلة.

يظهر في النص أسلوب ترتليان الفلسفي، والساخر في بعض الأحيان, لكن إجمالي النص هادئ ومتزن وسهل الفهم، وقد استعان به القديس "كبريانوس" في مقالته عن "الصبر الحسن".

في هذا النَص يؤكد لنا العلَّامة "ترتليان" أن:

1- المرء لا يليق به أن يتكلم عن فضيلة لا يعيشها ولم يمارسها من قبل. "مِن اللائق للذين يُلقون خطبةً بغرض التطبيق والتوصية بشيءٍ معين، أن يكونوا هم أنفسهم معروفين بممارستهم لهذا الشيء." (الفصل الأول)

2- الصبر هو مفتاح باقي الفضائل، وبدونه لا يمكن الحصول عليها. "لا يقدر أحدٌ أن يطيع أيَّة وصيةٍ، أو يكمل أي عملٍ يرضي الرب، إذا ابتعد عن الصبر." (الفصل الأول)

3- صَبَر الرب على إخلائه لذاته، وعلى الإهانة والألم، لكي يُعلِّم البشر روعة هذه الفضيلة. "لأن الصبر هو طبع الله." (الفصل الثالث)

4- الصبر يساعد على احتمال الخسائر المادية في هذا العالم. "فلنخسر إذاً الأشياء الأرضية بإرادتنا, ونحتفظ بما هو سماوي. وليهلك العالم ما دُمت أملك الصبر على احتمال هلاكه." (الفصل السابع)

5- يجب على خادم المسيح أن يحتمل المتاعب من أجل حبه لتعاليم الرب. "فلأجل ذلك أيها الخدام، فلنتبع ربنا بتدقيقٍ، ونحتمل الشتيمة بصبرٍ، لكي ما نصبح مباركين. فإن كنت لا أحتمل سماع كلمةٍ طائشةٍ أو شريرةٍ قد

قيلت ضدي، فمن المؤكد أنني سوف أثأر لنفسي، أو أصمت شاعرًا بعذابٍ لعدم احتمالي. فإن كنت أُشتَم فأَرُد، كيف إذاً أكون تابعًا لتعليم الرب؟ !" (الفصل الثامن)

6- الكنيسة تؤمن أن الموت هو انتقالٌ لحياةٍ أفضل, مثلما نقول في أوشية الراقدين: "ليس موتًا لعبيدك، بل هو انتقالٌ".

"الحزن على الموت سيكون بلا فائدةٍ، فلماذا تحزن إن كنت تؤمن بأن مَن تحبه لم يهلك؟ ! ولماذا تُظهِر عدم احتمالك لانسحابه المؤقت، ولماذا تبدو غير هادئٍ رغم أنك في الحقيقة سوف تلحق به عن قريب؟ !" (الفصل التاسع)

7- الله لا ينسى حق المظلومين الصابرين، وسوف يجازي عن الشر في الوقت المناسب.

"فلماذا إذاً نؤمن بأنه الديان، ولا نؤمن بأنه المنتقِم أيضاً؟ فلقد وَعد أنه سينتقم عوضاً عنا حينما قال: "لي النقمة أنا أجازى"، أي: "أصبروا عليّ وأنا سوف أكافئ صبركم". (الفصل العاشر)

8- الصبر يساعدنا علي الغفران والتسامح مع إخوتنا.

"فإننا سنكون في خطرٍ إذا ما غربت الشمس على غيظنا. فنحن غير مُصرحٍ لنا بأن نمكث يومًا واحدًا بدون الصبر." (الفصل الثاني عشر)

9- صبرُ القديسين يُفرح الله ويغيظ الشيطان، لأن صبر القديسين هو أداة انتصار الله عليه.

"ضعفت كل سهام التجارب أمام درع وترس صبر أيوب، الذي هو أداة انتصار الله. فكم كانت سعادة الله، وكم كان الشيطان هائجًا كمَن قُطِّع إربًا، حينما استمر أيوب بثباتٍ وقدرةٍ." (الفصل الرابع عشر)

المترجم

الفصل الأول

1- الصبر عمومًا.

2- عدم استحقاق ترتليان للكلام عن الصبر.

أعترف تمامًا أمام الرب الإله, أنه مِن التهور- إن لم يكن من الوقاحة – أن أتجرأ وأُعِد مقالةً عن فضيلة الصبر، التي لا تنطبق عليَّ نهائيًا لكوني رجُلاً غير صالحٍ.[1] لأنه مِن اللائق للذين يُلقون خطبة بغرض التطبيق والتوصية بأمرٍ معيَّن، أن يكونوا هم أنفسهم معروفِين بممارستهم لهذا الشيء. كما يجب عليهم أن يضبطوا سلوكهم ويجعلوه ثابتًا, بما يتناسب مع سيرتهم الذاتية, حتى لا تضيع كلماتهم بسبب نقص البراهين.[2] لأن الخجل لن يُقدِّم علاجًا. فهل مجرد شعورنا بالعار لعدم ظهورنا بالشكل الذي نقترحه على الآخرين, سيكون كافٍ لإصلاحنا إلى أن نظهر بهذا الشكل؟! لكن إن كان كَمٌّ الأمور الحسنة – وكذلك بالنسبة للأمور السيئة – أمرًا يفوق الطاقة، فحينئذ ستكون نعمة التعليم الإلهي[3] هي العاملة فينا, لأجل الحصول على هذه الأمور وممارستها.[4]

إن الأمور فائقة الصلاح تُترَك بالأحرى لله، فهل يمكن لأي شخصٍ آخر أن يمنحها سوى الله الذي يملكها، والذي يحكم بما يناسب كل شخصٍ؟ لذلك، فإن مناقشة أمرٍ لم نحصل عليه ستكون مُعَزِّيةً، تمامًا مثل المريض الذين لا يكُف عن الكلام عن بركات الصحة, منذ أن أصبح عديم الصحة.

لذا, فأنا الحقير بالأكثر، المريض على الدوام بحُمَّى عدم الصبر، ينبغي لي

---

[1] (رو 7: 18).

[2] أي يجب عليهم أن يراقبوا تصرفاتهم لكي توائم سمعتهم، حتى لا يكون كلامهم غير أفعالهم، وهذا سيجعلهم يخجلون. {المترجم}

[3] أي أن يعلِّمنا الله ما لا نستطيع عمله بذاتنا.

[4] أو للتخلص منها بالنسبة للأمور السيئة. {المترجم}

بالضرورة أن أتلهف إلى هذه الصحة, التي هي الصبر الذي لا أملكه, وأتوسل وأتضرع لأجله، وألتمسه حينما أتأمل ضعفي، فأُدرِك حقيقة أن الصحة الإيمانية الجيدة وسلامة تعليم الرب, لا يحصل عليهما أحدٌ بسهولةٍ إلا إذا كان الصبر حليفه. لذا، فإن الصبر هو المتحكِّم في الأمور الخاصة بالله،[1] لدرجة أنه لا يقدر أحدٌ أن يطيع أيَّة وصية أو يكمل أي عمل يرضي الرب، إذا ما ابتعد عن الصبر.

إن المُتحلِّين بالصبر، وحتى البعيدين عنه، يكرمونه بلقب "أعظم فضيلة". وفي الواقع, الفلاسفة الذين نعتبرهم مخلوقاتً تتمتع بحكمةٍ كبيرة، يعطونه مكانًا عاليًا. فبينما هم يتنازعون حول ميولهم المتعددة وطوائفهم وآرائهم المتنافسة، فإنهم يتفقون حول ما يخص الصبر وحده، ويجتمعون في سلامٍ من أجل هذا الأمر الوحيد المشترَك بين اهتماماتهم. فلأجله يقيمون مؤتمراتً، ولأجله يتحالفون, وفي سعيهم لاقتناء الفضيلة يجِدُّون في طلب الصبر بالإجماع، ويكون كل افتخارهم بحكمتهم يتعلق بالصبر.

إن هذه شهادةٌ عظيمةٌ عن الصبر، كونه يُحرِّض حتى المدارس العالمية الباطلة[2] أن تمدحه وتمجِّده! أم أنكم تظنون بالحري أنه أمرٌ ضارٌ أن يُناقَش شيئًا إلهيًا بين العلوم العالمية؟!

إذًا، فلنتركهم يهتمون بعلومِهم العالمية, هؤلاء الذين سوف يخجلون مِن حكمتهم يومًا ما، وسوف يهلكون ويفتضحون عند هلاك العالم.

---

[1] أي أن فضيلة الصبر هي فضيلة أساسية تُبنى عليها كل الأمور الروحية. {المترجم}

[2] أي مدارس الفلسفة.

الفصل الثاني

الله نفسه هو نموذج الصبر.

أمّا بالنسبة لنا نحن المسيحيون، فإننا لم نتلقَ أمر ممارسة الصبر مِن إنسانٍ يتظاهر بالتحكم الشكلي في النفس، لكن التدبير الإلهي للتعليم الحي والكنسي قد أظهر أمامنا الله نفسه كنموذجٍ للصبر مِن المرتبة الأولى. فهو الذي يشرق بهاء نوره على البار والشرير بالتساوي,[1] والذي يسمح لمنافع فصول السنة، والمواد الطبيعية، وعطايا الطبيعة كلها، بأن تحدث في نفس الوقت للمستحق وغير المستحق. وهو المُحتمِل لأسوأ الشعوب ناكرة الجميل، والتي تعبد المصنوعات الفنية والأعمال اليدوية – هؤلاء الذين يضطهدون اسمه وخاصته معًا. وهو الذي يحتمل الفاسقين والطمَّاعين والخبثاء والمتغطرسين كل يومٍ. لذلك، فبسبب إنكار الرب لذاته بصبره، لا يؤمن به الكثيرون، لأنهم مازالوا لا يعرفون أنه سوف يدين العالم.

الفصل الثالث

تجسُّد وعمل يسوع المسيح هو أكثر نموذج يُقتَدى به.

وهذه المرتبة مِن الصبر الإلهي تبدو في الحقيقة كما لو كانت بعيده جدًا، وربما تُعتبر مِن بين العجائب التي هي أعلى مِنَّا.[2] لكن ماذا عن هذا الصبر الذي لمسته الأيدي علانيةً بالفعل،[3] على الأرض وبين الناس؟

لقد ارتضى الرب نفسه أن يُحبَل به في رحم أُم، وانتظر مُدَّة الحَبَل به، وعندما وُلِد احتمل أن ينمو تدريجيًا، وحينما كَبُر لم يتلهف أن يصير معروفًا، بل

---

[1] (مت5: 45)

[2] (مز 131: 1)

[3] (1 يو 1: 1) وهو يقصد تجسد السيد المسيح, وصبره على الآلام الإنسانية كإنسانٍ كاملٍ. {المترجم}

أكثر من ذلك أنه احتمل التحقير، واعتمد مِن خادمه، ورَدَّ وحده على هجوم المُجرِّب بالكلمات المكتوبة. ولما أصبح الرب مُعلِّمًا يُعلِّم الإنسان كيف يهرب من الموت، تدرب على الاختبار الصعب للصبر باحتمالٍ تامٍ.[1]

لم يُخطئ النبي "إشعياء"[2] في كلامه، بل الله نفسه قد صدَّق على هذا الكلام، واضعًا روحه في ابنه, ومانحًا إياه الصبر الكامل حينما قال: "لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحدٌ في الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف, وفتيلة مدخِّنة لا يطفئ"[3].

إنه لم يرفض أحدًا ممن رغبوا في أن يلتصقوا به، ولم يحتقر مائدة أو بيت أحدٍ. فلقد خدم تلاميذه وغسل أقدامهم، ولم يَرُد خاطئًا أو عشارًا، ولم يتحامل على المدينة التي رفضت استقباله،[4] بينما أراد تلاميذه أن تنزل فورًا نارٌ من السماء على هذه المدينة الحقيرة.

اهتم بالجاحدين وخضع لمتصيديه، بل وأكثر من ذلك أنه أبقى برفقته مَن خانه، وامتنع بثباتٍ عن أن يكشفه. وحينما اقتيد لم يفتح فاه "كشاةٍ تساق إلى الذبح وكنعجةٍ صامتةٍ أمام جازيها",[5] وهو الذي يمكنه إن أراد بكلمةٍ واحدةٍ أن يستدعي جيوش الملائكة من السماء.[6] ومع ذلك, فقد رفض حتى أن ينتقم واحدٌ من تلاميذه بالسيف،[7] وانجرح صبر الرب بجرح ملخس.[8] وهو بهذا قد لعن أعمال السيف، وفي

---

[1] (عب 5: 8)

[2] (اش 42: 2، 3)

[3] (مت 12: 19، 20)

[4] (لو 9: 51 – 56)

[5] (اش 53: 7)

[6] (مت 26: 53)

[7] (مت 26: 51،52)

[8] (يو 18: 10)

وفي نفس الوقت شعر أيضًا بالرضى لشفاء "ملخُس" – الذي لم يؤذه هو بنفسه – بسبب فضيلة الصبر التي هي أم الرحمة.

لقد أغفلتُ ذِكر حقيقة صَلبه دون أن يتكلم، فهذا هو الهدف الذي أتى لأجله.[1] لكن هل كان مِن الضروري أن يكون الموت الذي توجَّب عليه أن يحتمله مُهينًا بهذا الشكل؟! كلَّا، لكنه لمَّا كان في طريقه للموت، اشتهى أن ينال ما يكفي من الصبر– على الألم – بكل سرورٍ! فلقد بُصِق عليه، وجُلِد، وأستُهزِئ به، وارتدى ثوب العار, بل وأكثر من ذلك، قد كُلل بإكليل العار. فما أعجب ثبات إيمانه! إن الذي كان يريد أن يُخفي نفسه في صورة إنسانٍ، اعتبره الإنسان كلا شيء بسبب عدم الصبر.

فمِن ثَمَّ، وأكثر مِن أي شيءٍ آخر، كان يجب عليكم أيها الفريسيون أن تعترفوا بالرب، لأن هذا النوع من الصبر لا يقدر أن يحتمله إنسان.

إن الكثير والكثير من البراهين الواضحة[2]– والتي هي سبب رفض الإيمان بين بين الشعوب، لكنها بالنسبة لنا سببًا للإيمان والتهذيب– تؤكد علانيةً تأثير وفضل هذه الصفة الملازمة لله, بما فيه الكفاية لهؤلاء الذين أُعُطي لهم أن يؤمنوا. ليس بالمواعظ فقط الموجودة في الوصايا، بل وأيضًا بما عاناه الرب باحتمالٍ, لأن الصبر هو طبع الله.

---

[1] أي أنه جعل الكلام عن احتمال الصليب آخر المطاف, لأنه هو نهاية احتمال المسيح للآلام البشرية. {المترجم}

[2] التي تؤكد احتماله للآلام بصبرٍ شديدٍ, وهو ما يعتبره الهالكون جهالة. (1كو1: 18).

الفصل الرابع

1- الواجب علينا الاقتداء بما علَّمنا الرب مُعلِّمنا، أن نتمثل بالعبيد, أو حتى بالبهائم.

2- التمثُّل بالطاعة هو أساس الصبر.

بناءً على ذلك، فإن كُنا نرى أن كل مَن يخدمون بأمانةٍ وبمشاعرٍ حقيقية، يُكيِّفون سلوكهم بما يتناسب مع طبع سيدهم. وإن كان قانون الطاعة التي تستحق التكريم هو التسليم بخضوعٍ. فكم يتعين علينا بالأكثر أن نتصف بالصفة التي تتناسب مع تبعيتنا لله. فإننا خدام لله الحي الذي لا يتسلط على خدامه بقيدٍ أو غطاءٍ للحرية، بل بحياةٍ أبدية، سواء للعقاب أو للخلاص.

إن تجنب مَن هو قاسٍ، أو استعطاف مَن هو كريمٌ، يحتاج إلى مثابرة في الطاعة, بما يتناسب مع هول التهديدات التي نَطق بها القاسي، أو عظمة الوعود التي وعد بها الكريم علانيةً.

وبالرغم مِن ذلك، فإننا لسنا نتعلم الطاعة فقط مِن الناس المقيَّدين مِن رقابهم بقيود عبوديتهم، ومِن المدينين بالخضوع بأي شكلٍ قانوني، بل نتعلمها مِن الحيوانات الأليفة – أو حتى الشرسة – عالمين أن الرب قد خلقها ومنحها لاستخداماتنا. لكن هل ستخضع لنا المخلوقات التي صنعها الله, أفضل مِن خضوعنا لوصية الطاعة؟ في النهاية، إن المخلوقات المطيعة تعرف ساداتها.[1]

فهل سنتردد في أن نجتهد لأجل طاعة الرب الذي نخضع له وحده؟ لكن كم هو من الظلم، بل كم هو من الجحود أيضًا أن لا تسدد بنفسك نفس الشيء الذي تطلبه من الآخرين[2]– لمَن قد أَخذت الدين منه – بأن تسامح قريبك![3]

فلا يوجد احتياجٌ لكلماتٍ أخرى لأجل توضيح ضرورة طاعتنا للرب الإله، لأن

---

[1] (اش 1: 3)

[2] أي المغفرة.

[3] المقصود بالجملة أنه يجب على الانسان المديون بالمغفرة لله أن يغفر لأخيه.(مت18: 23– 35)

الإنسان حينما يعرف الرب, فإنه يفهم ما يجب عليه فعله، كي لا نكون كمن أبدى ملاحظات على الطاعة كأنها شيءٌ غير مقبولٍ. دعونا نتذكر أن الطاعة نفسها ناتجة عن الصبر، فلا يقتنيها إنسانٌ عديم الصبر، ولا يوجد إنسانٌ صبورٌ يفشل في التلذذ بها.

فمَن إذًا يستطيع أن يتكلم بما فيه الكفاية عن عظمة صبر الرب الإله – الذي طبَّق وتقبل كل شيء جيدٍ – الذي أظهره بنفسه؟ ومَن هو أيضًا الذي يشك في أن كل شيءٍ جيدٍ، لكونه يتعلق بالله، ينبغي أن يطلبه المنتمون لله باجتهادٍ عَقليٍ تام؟ وبهذا نكون قد قدمنا باختصار التوصيات والتحذيرات التي تخص موضوع الصبر، في شكلٍ ملخصٍ لهذا القانون الواجب.

الفصل الخامس

بما أن الله هو أصل الصبر، فالشيطان إذًا هو أصل عدم الصبر.

إن النِقاش حول أُسس الإيمان ليس بالأمر التافه على الأطلاق, لأنه لن يكون بغير نفعٍ، فإنه لا يوجد أي خطأٍ في كثرة الكلام لأجل التهذيب، حتى لو كانت كثرة الكلام في أي وقتٍ آخر[1] هي أمرٌ خاطئ. لذلك، فإن كان الحديث يتعلق بأمرٍ جيدٍ، فالأمر يتطلب مِنا أن نفحص عكس هذا الأمر الجيد أيضًا. لأنك بتلخيصك لِما يجب تجنبه، تُسلط الضوء على ما يجب أن يُجَدُّ في طلبه.

أمَّا بخصوص عدم الصبر، فدعونا نعتبر أنه, إن كان الصبر أمرًا إلهيًا، فالصفة المعاكسة للصبر إذًا قد نشأت ووُجِدت في عدونا، مما يبين لنا كيف أن عدم الصبر هو العدو الأول للإيمان. لأن مَن يُعتبر عدوًا لله، فهو بالتأكيد غير مُحبٍ لأمور الله، لأن اختلافه مع أمور الله هو نتيجة لاختلافه مع الله.

فضلاً عن ذلك، بما أن الله هو أفضل كائنٍ، فالشيطان في المقابل هو أسوأ

---

[1] (مت 6: 7)

كائنٍ، وهما بذلك يشهدان بأن أحدهما لا يعمل من أجل الآخر, نتيجة للفارق الشديد بينهما. وهكذا لن يبدو لنا أن أي خيرٍ يحدث لنا هو بسبب الشرير، ولا أي شرٍ بسبب الخيِّر.[1]

لذلك، فقد اكتشفتُ أن بداية القنوط كانت في الشيطان نفسه، واتضح ذلك بالأكثر حينما تضايق بغير صبرٍ مِن أن الرب الإله قد أخضع مخلوقات العالم التي صنعها لصورته، أي الإنسان.[2] لأنه لو كان قد احتمل هذا الأمر, لَما كان قد حزن، ولا كان قد حسد الإنسان بسبب هذا الحزن. وبناءً عليه، فقد خدعه بسبب حسده. لكنه حسده لأنه حزن، وسبب حزنه بالطبع كان عدم احتماله بصبر.

إنني أتساءل باستخفافٍ، كيف كان ملاك الهلاك الأبدي في البداية؟ أكان حقودًا، أم عديم الصبر؟ لأنه مِن الواضح أنه إن كان عدم الصبر والحقد قد بدءا معًا، أو كان الحقد قد جاء نتيجةً لعدم الصبر، فإنهما قد اتفقا فيما بينهما بالتبعية، ونميا معًا بلا انقسامٍ في حضن أبٍ واحدٍ.

على العموم، فإن ما شعر به أولاً[3] هو الذي ساعد على الخطية، وبسببه بدأ طريق الانحراف، واستخدام نفس الطريقة لدفع الإنسان إلى الإثم. وبدون تهورٍ، أستطيع أن أقول إنه بمجرد أن التقت المرأة به, نفخ فيها روحًا مُلوَّثًا بعدم الصبر, مِن خلال حواره معها بالذات. ولذلك، فهي لم تكن لتخطئ أبدًا بكل تأكيدٍ لو كانت قد أكرمت الوصية الإلهية، واحتفظت بصبرها إلى النهاية.

وماذا عن كونها لم تحتمل أن تقابله وحدها؟ لكنها بحضور آدم – الذي لم يكن قد عرفها بعد، ولا كان مضطرًا لأن يصغى لها بعد – لم تصبر على البقاء صامتةً، ونقلت إليه ما قد أصابها[4] من الشرير، وهكذا قد فسد إنسانٌ آخر بسبب

---

[1] أي الله.

[2] (مز 8: 4– 6)

[3] أي عدم احتماله لأن يكون خادم لله مثل باقي الملائكة. {المترجم}

[4] باعتبار عدم الصبر مرض معدٍ.

عدم صبر الأول،[1] وصار هو نفسه أيضًا فاسدًا في الحال بسبب اقترافه لعدم الصبر من جهتين: التحذير الإلهي السابق من جهة، وغش الشيطان من جهة أخرى. لأنه لم يستطع أن يراعي الأول,[2] ولا أن ينقض الأخير.[3]

لذلك، فالذي صدر عنه الإثم تسبب في أول نشأة للدينونة، والذي أغوى الإنسان للخطية قد تسبب في غضب الرب، وابتدأ أول صبر إلهي مع مَن تسبب في أول غضب له،[4] حيث اكتفى الله في ذلك الوقت باللعنة فقط، وامتنع عن مجازاة الشيطان بالعقاب الفوري.[5]

فما هي الجريمة التي أتُهم بها الإنسان قبل خطية عدم الصبر؟[6] لقد كان بريئًا، وفي صداقةٍ حميمةٍ مع الله، وكان فلاَّح الجنة. لكن بمجرد ما استسلم لعدم الصبر, لم يعُد الإنسان مستساغًا لله، ولم يعُد الإنسان نفسه قادرًا على احتمال الأمور السماوية. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، أعُطي الإنسان للأرض، ولُفظ من عِشرة الله، وبدأ يتجه إلى كل ما يُغضِب الله بسبب عدم الصبر.

وبمجرد ما نبت القنوط من بذرة الشيطان، وُلد الغضب كابن له نتيجة لتلقيح الحقد. ولما وُلِد الغضب، أدَّبه عدم الصبر بفنونه الخاصة. إن هذا الأمر بالذات هو الذي أغرق آدم وحواء في الموت، وعلَّم ابنهما أيضًا أول جريمة.

لا حاجة لي أن أُعزي هذا إلى عدم الصبر، فلو كان قايين – أول قاتل نفسٍ,

---

[1] أي حواء.

[2] أي التحذير الإلهي.

[3] أي غش الشيطان.

[4] أي الشيطان.

[5] أي بالهلاك.

[6] اختلف الآباء في رأيهم عن سبب سقوط الإنسان، فالمعظم يعتقد أن سبب ذلك هو الكبرياء، والبعض يرى أن ذلك نتيجة كسر أدم للصوم (أي الصوم عن الأكل من شجرة معرفة الخير والشر)، والبعض يرى أنه نتيجة التساهل مع الفكر الشرير. أما ترتليان فيرى أن سبب السقوط هو عدم احتمال الإنسان للوصية. {المترجم}

وأول قاتل لأخيه- قد احتمل رفض الله لقربانه باتزانٍ وبلا ضجَرٍ حتي النهاية, ولم يغضب من أخيه، لما أنهى حياة أحد. لأنه ما كان ليَقتل لو لم يغضب، ولا كان ليغضب لو لم يكن عديم الصبر. لقد أظهر أن ما فعله نتيجة الغضب لابد وأن يُنسب إلى الشيء الذي أوعز بالغضب، الذي هو عدم الصبر في مهده وطفولته.[1] لكنه حاليًا قد تعاظم جدًا، ولا عجب. فإن كان عدم الصبر هو أول إثمٍ، فنتيجة لكونه الأول، فهو كذلك الرحِم الوحيد لكل إثمٍ، ومنه تتدفق مجاري متعددة من الجرائم.

لقد تكلمنا عن القتل، لكن لأنه من البداية كان نتيجة للعنف، فمهما كانت الأسباب الأخرى المؤدية له، فإن عدم الصبر سيكون أساس جميعها.

إن أي إنسانٍ يرتكب هذا الشر- سواء نتيجة لعداوات شخصية، أو لأجل النهب- ستكون الخطوة الأولي لذلك هي عدم قدرته على احتمال الكراهية، أو حُبه للمال. مهما كانت دوافع الإنسان، فلا يمكن أن تكمُل بدون عدم الصبر. فمَن هو الإنسان الذي ارتكب خطيئة الزنا, إلا مَن لم يحتمل الشهوة؟ وبالتأكيد بسبب عدم احتمال الربح القليل،[2] تضطر بعض النساء أن يبعن عِفتهن بسبب العوز.

إنني أذكر تلك الأمثلة، والتي هي الآثام الأساسية في نظر الله، حتى أقول باختصارٍ إن كل خطيئة يكون سببها عدم الصبر. فالشر هو عدم الصبر على فعل الخير، وكل فجورٍ هو عدم احتمال للحياء، وكل خيانةٍ هي عدم احتمال للأمانة، وكل عدم تقوى هو عدم احتمال للتقوى، وكل قلقٍ هو عدم صبر على الهدوء. فكل شخصٍ يصبح شريرًا لن يستطيع أن يستمر في عمل الخير، وكيف يفشل أفعوان[3] الآثام هذا في أن يُخطِئ إلى الرب الرافض للشرور؟

---

[1] أي في بداياته.

[2] وهو يقصد النساء اللواتي لا يحتملن الفقر، فيلجأن للزنى. {المترجم}

[3] (Hydra), وهو حيوانٌ خرافيٌ قد هزمه هرقل, له رؤوس كثيرة, إذا قُطع رأس تنبت اثنتان. وهي قصةٌ خرافيةٌ من التراث الوثني, والمقصود هنا هو عدم الصبر. {المترجم}

أليس واضحًا أن بني إسرائيل كانوا دائمًا يفشلون في الالتزام بوصايا الله بسبب عدم الصبر، وهذا واضحٌ منذ وقت أن نسوا يد الله التي بها نجوا من محنة مصر، وطلبوا من هارون قائلين: "اصنع لنا آلهة تسير أمامنا".[1] فسكبوا التبرعات الذهبية لأجل صُنع تمثال, ولم يحتملوا بصبرٍ تأخر موسى – الذي كان ضروريًا – حينما التقى بالله. فبعد هطول المَن كطعام، وبعد أن نبعت لهم الصخرة التي تابعتهم،[2] فقدوا الأمل في الرب غير محتملين عدم وجود الماء لمدة ثلاثة أيام.[3] لأن اتهامهم لله كان بسبب عدم الصبر.

ولكيلا أطوف خلال الأسباب الفردية أكثر من ذلك، أقول إنه لم تكن هناك فرصة للهلاك لو لم يخفقوا في طاعة الوصايا بسبب عدم الصبر. فكيف رفعوا أياديهم على الأنبياء إلا بسبب عدم احتمال سماعهم؟ وكذلك كيف رفعوا أياديهم على الرب نفسه إلا بسبب عدم احتمالهم لرؤيته؟ فلو صبروا لخلصوا.

الفصل السادس

الصبر هو السابق واللاحِق للإيمان.

وهكذا، فإن الصبر هو السابق واللاحِق للإيمان، وباختصار "آمن إبراهيم بالله, فحسبه له برًّا".[4] فالصبر هو الذي برهن على إيمانه عندما أُمر بأن يُقدِّم ابنه ذبيحة لكي يُثبِت إيمانه النموذجي. لن أقول لكي يجربه، لأن الله يعرف مَن هو الذي حَسب له البِر. فلقد أصغى إبراهيم بصبرٍ إلى الوصية الثقيلة جدًا – والتي لم يكن إتمام تنفيذها أمرًا يسيرًا بالنسبة له، ولا حتى بالنسبة لله – وكان سينفذها لو أراد

---

[1] (خر 32: 1)
[2] (1كو 10: 4)
[3] (خر15: 22، 23)
[4] (تك 10: 6)، (رو 4: 3، 9، 22)، (غل 3: 6)، (يع 2: 23).

الله.

إذًا، فقد كان مبارَكًا بالحقيقة لأنه كان مؤمنًا، ولقد كان مؤمنًا بالحقيقة بسبب صبره. وهكذا، فإن الإيمان قد استنار بالصبر منذ انتشر بين الأمم من خلال "نسل إبراهيم" – "الذي هو المسيح"[1]– الذي أضاف نعمة فوق نعمة للناموس،[2] وجعل الصبر رفيقه المفضَّل, في تعظيمٍ وإتمامٍ الناموس، لأن هذا فقط هو ما كان يفتقر إليه تعليم البِر.

لقد اعتاد الناس فيما مضى على طلب "عين بعين وسن بسن"،[3] وأن يُجازوا عن "شرٍ بشرٍ"،[4] فحتى ذلك الوقت لم يكن الصبر موجودًا على الأرض لأن الإيمان لم يكن كذلك موجودًا،[5] ومن المؤكد أن عدم الصبر قد اعتاد على الاستمتاع بالفُرَص التي منحها له الناموس أثناء ذلك، فلقد كان هذا سهلاً قبل مجيء رب ومعلم الصبر. لكنه بعد مجيئه, آلف بين نعمة الإيمان والصبر. فلم يعُد الآن مُصرَّحًا بأن نعتدي على أحدٍ، لا بكلمةٍ ولا حتى بقول: "يا أحمق"،[6] بدون خطر الدينونة. لقد حُرِّم الغضب، وضُبِطت المشاعر، وقُيِّدت اليد المشاكسة، وانتُزِع سُمُّ اللسان.

إن الناموس قد جَنى أكثر مما فَقد حينما قال المسيح: "أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم،... صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم

---

[1] (غل 3: 16)

[2] (يو 1: 17)، (رو 6: 14، 15).

[3] (مت 5: 38)، (خر 21: 24)، (لا 24: 20)، (تث 19: 21).

[4] (رو 12: 17)

[5] أي الإيمان المسيحي الكامل الذي علَّمه لنا المسيح بمجيئه على الأرض، وأكمله بناموس الفضيلة. {المترجم}

[6] (مت 5: 22)

الذي في السماوات".[1]

أتَرون كيف يجعلنا الصبر أبناء الله؟ إن ممارسة الصبر عمومًا قد شملتها هذه الوصية الأساسية بإيجاز، لأن الأعمال الشريرة لم تعد مقبولة, حتى ولو كان الأمر يستحق ذلك.

الفصل السابع

مُسبِّبات عدم الصبر، والوصايا الملائمة لها.

والآن، بينما نحن نفحص مسبِّبات عدم الصبر، سنجد الحلول موجودة عند كل الوصايا الأخرى بما يتناسب مع كل سببٍ.

فإن كانت الروح تنزعج بسبب خسارة المال، فهناك أمرٌ عامٌ موجودٌ تقريبًا في كل الأسفار المقدَّسة التي للرب، وهو أن نزدري بالعالم. وهل يوجد أي تنبيه لأجل ازدراء التوكل على المال، أكثر من أن الرب نفسه لم يكن من بين الأغنياء؟ إنه دائمًا يُزكِّي الفقير ويدين الغني. لذا, فقد سبق وقدَّم المساعدة على احتمال الخسارة، وأعطى الغَني[2] نصيب الخزي، مُظهرًا برفضه للأغنياء أن الخسائر المادية التي تصيبهم هي أمورٌ لا ينبغي الالتفات إليها.

لذا، لسنا في أدنى احتياجٍ للسعي وراء المال، لأن الرب أيضًا لم يسعَ وراءه، بل يجب علينا أن نحتمل نُقصانه أو سرقته بدون حزن. لقد نطق روح الرب على لسان الرسول قائلاً: "محبة المال أصل كل الشرور".[3]

يجب علينا ألَّا نفهم أن محبة المال هي اشتهاء ما للغير فقط، لأن ما يبدو وكأنه لنا هو في الحقيقة لغيرنا. إننا لا نملك شيئًا، لأن كل الأشياء هي لله، ونحن

---

[1] (مت 5: 44، 45)

[2] الذي يتكل على أمواله.

[3] بولس (1 تي 6: 10).

أنفسنا أيضًا ملكًا له، فإن كنا نشعر بعدم صبرٍ عندما نعاني من خسارةٍ، متأسفين على ما قد ضاع مما لا نملكه، فحينئذٍ سنكون قريبين من محبة المال. عندما لا نستطيع احتمال خسارة ما للغير، فذلك لأننا نشتهي ما لا يخُصّنا. لذلك، فالإنسان الذي يغضب بشده لعدم احتماله للخسارة، إنما يخطِئ إلى الله مباشرةً بإعطائه الأولوية للأمور الأرضية أكثر من الأمور السماوية، فإنه يصيب الروح القدس الذي منحه إياه الرب بصدمةٍ، لأجل اهتمامه بأمرٍ عالمي.

فلنخسر إذًا الأشياء الأرضية بإرادتنا ونحتفظ بما هو سماوي، وليهلك العالم مادُمت أملُك الصبر على احتمال هلاكه.

في الحقيقة، أنا لست أدري إن كان مَن لا يعتزم بثباتٍ على احتمال خسارة شيء ما مما له – سواء بالسرقة أو بالغصب أو حتى بسبب الإهمال – سيستطيع أن يُعطي ماله صدقةً برضاه ورغبته؟! لأن مَن لم يحتمل أن يخضع لعمليةٍ جراحيةٍ على يد أحدٍ قط، كيف يستل السكين ويفتح جرحه بنفسه؟! إن الصبر في حالات الخسارة هو اختبارٌ للعطاء والتواصل، فمَن لا يخشى الخسارة لن يجد في العطاء أمرًا شاقًا. كذلك, كيف يمكن لمَن له ثوبان أن يعطي أحدهما للعريان, إلا إذا كان هذا الإنسان يستطيع أن يقدّم رداءه أيضًا لمَن يسلب منه ثوبه؟[1] وكيف نقدر أن نصنع لنا أصدقاءً بالمال,[2] إن كنا نحبه بشدةٍ لدرجة أننا لا نطيق خسارته؟! إننا سوف نفنى نحن والمال المفقود معًا، فلماذا نريد أن نجد هنا ما يجب أن نضيّعه؟[3]

إن إظهار عدم الصبر على كل أنواع الخسائر هو من صفات الوثنيين، الذين يعطون المال الأولوية، ربما حتى قبل أرواحهم. لأن هذا هو ما يفعلونه حينما يواجهون المخاطر التجارية المربِحة في البحر لأجل الربح الجشع، وهذا هو ما

---

[1] (مت 5: 40)، (لو 6: 29).

[2] (لو 16: 9).

[3] (مت 10: 39).

يفعلونه بعدم ترددهم في أن يواجهوا في الميدان – لأجل المال[1]– ما قد يخشاه الجحيم نفسه! حينما يؤجِّرون أنفسهم لأجل الرياضة والخدمة العسكرية، وأيضًا حينما يمارسون قَطع الطُرق بطريقة الوحوش المفترسة.

لكننا بسبب الاختلاف الذي نتميز به عنهم، يليق بنا ألَّا نقدم أرواحنا لأجل المال، بل المال لأجل أرواحنا، سواء بشكلٍ تلقائيٍ بغرض العطاء، أو بصبرٍ عند فُقدان المال.

الفصل الثامن

احتمال العنف والسب.

هل سنتألم نحن الذين نُعَّرض أرواحنا وأجسادنا لكل أشكال الأذى الموجودة في هذا العالم، ونُظهِر صبرًا على هذا الأذى، لأجل خسارة الأشياء قليلة الأهمية؟![2] ما أبعد هذا العار عن خادم المسيح، أن يتخلى عن الصبر الذي سبق وأظهره في تجاربٍ أشد قوةٍ، لأجل تجاربٍ تافهةٍ! فإذا ما حاول أحدٌ أن يستثيرك لأجل الاقتتال، فتذَكَّر أن الرب قد نبهنا قائلاً: "مَن لطمك على خدك الأيمن، فحول له الآخر أيضًا"،[3] واجعل الاعتداء يذوب بصبرك. فأيًا كان الألم والعار المصاحب لهذه اللطمة، فإن صاحبها سيتلقى من يد الرب لطمة أشد. إنَّك باحتمالك تجرح هذا المعتدي بشكلٍ أكبر، لأنه سوف ينال الضربة ممن تحتمل لأجله.

فإن انطلق لسانٌ غاضبٌ بالشتيمة أو التعيير، فتذَكَّر قول الرب: "إذا عيَّروكم... افرحوا"،[4] فإن الرب نفسه قد صار لعنةً مِن وجهة نظر الناموس،[1] مع

---

[1] أي ميدان المبارزة، حيث كان الفرسان يتبارون ويقدمون عروضًا خطره لأجل الربح، مع أن الهزيمة معناها الموت مقتولاً. {المترجم}.

[2] (مت 6: 25)

[3] (مت 5: 39)

[4] (مت 5: 11، 12)، (لو 6: 22، 23)

أنه هو وحده المبارَك.

لأجل هذا أيها الخدام، فلنتبع ربنا بتدقيقٍ، ونحتمل الشتيمة بصبرٍ, لكي ما نصير مبارَكين. فإن كنت لا أحتمل سماع كلمةٍ طائشةٍ أو شريرةٍ قد قيلت في حقي، فمِن المؤكد أنني سوف أثأر لنفسي، أو أصمت شاعرًا بعذابٍ لعدم احتمالي. إن كنت أُشتَم فأَرُد، فكيف إذاً أكون تابعًا لتعليم الرب؟!

فلأجل هذا قيل: "ليس شيءٌ مِن خارج الإنسان إذا دخل يقدر أن ينجسه، لكن الأشياء التي تخرج منه هي التي تنجس الإنسان"،[2] وقيل أيضًا: "إن كل كلمةٍ بطالةٍ يتكلم بها الناس، سوف يُعطون عنها حسابًا".[3] فالمحصلة إذًا أن الرب ينبهنا أن نحتمل ما يفعله الآخرين بصبرٍ. وفي نفس الوقت، يمنعنا مِن فعل نفس الأفعال.

والآن سوف أنتقل إلى الكلام عن السعادة التي تنتظر الصابرين. إن أي جرحٍ يحدث – سواء بالكلام أو باليد– سوف ينتهي بمجرد ظهور الصبر، مثلما ينتهي سلاحٌ قد استُخدِم ضد أشد الصخور صلابةً وثباتًا. إنه سيصبح ضعيفًا، لأنه سوف يسقط بالتمام بغير نفعٍ أو نتيجةٍ، بل وسوف يرتد في بعض الأحيان ويصيب مَن أطلقه، ويرد الإهانة بشكلٍ شديدٍ على مَن استخدمه. فلا شك أن الدافع وراء جرح أحدٍ لك هو أن يجعلك تتألم، لأن سعادة مَن يَجرح هي في إيلام المجروح.

إذًا، فأنت حينما تُفسِد سعادته – بعدم شعورك بالألم – فلابد أنه سيتألم لفقدان بهجته. فإنك لن تذهب فقط دون أن تتأذى– حتى وإن كان هذا كافيًا لك – لكنك ستمضي فرِحًا بالأكثر لخيبة أمل عدوك، آخذًا بثأرك نتيجة شعوره بالألم،[4] وهذه هي فائدة الصبر وما يسببه من بهجةٍ.

---

[1] (تث 21: 23)، (غل 3: 3)

[2] (مر 7: 15)

[3] (مت 12: 36)

[4] ولو أن هذا بالتأكيد ليس هو الهدف من فضيلة الصبر, لأن الرب قد قال: "لي النقمة" (رو 12: 19). {المترجم}

الفصل التاسع

الصبر على فقدان الأحباء.

وحتى هذا النوع من عدم الصبر، والذي يظهر عند فقدان الأحباء، هو أيضًا بلا عُذرٍ. رغم وجود بعض التصريحات التي تدافع عن الحق في هذا الحزن. فإننا يجب أن نضع التأمل في تصريح الرسول[1] دائمًا أمام أعيننا حينما قال: "لا أريد أن تجهلوا أيها الأخوة من جهة الراقدين، لكيلا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم"، لأن هذه هي الحقيقة. إننا بإيماننا بقيامة المسيح نؤمن أيضًا بقيامتنا نحن الذين قد مات المسيح ثم قام لأجلنا.

إذًا، فلأن قيامة الأموات هي أمرٌ محققٌ، فالحزن على الموت سيكون بلا فائدةٍ، وكذلك عدم احتمال الحزن على الموت سيكون أيضًا بلا فائدةٍ. فلماذا تحزن إن كنت تؤمن بأن مَن تحبه لم يهلك؟! ولماذا تُظهِر عدم احتمالك لانسحابه المؤقت, رغم أنك تؤمن بأنه سوف يعود؟! فإن ما تظنه موتًا هو في الحقيقة انتقالٌ.[2] والذي رحل قبلنا لا يجب أن نبكي عليه بالرغم من اشتياقنا إليه بالطبع. وحتى هذا الاشتياق لابد أن يُعالَج أيضًا بالصبر، فلماذا تبدو غير هادئٍ,[3] رغم أنك في الحقيقة سوف تلحق به عن قريب؟!

إلى جانب ذلك، فإن عدم الصبر على أشياءٍ مِن هذا القبيل, يُنذِر بِشرٍّ قد يصيب رجاءنا، ويجعل الإيمان كاذبًا. فإننا نجرح المسيح حينما لا نوافق على استدعائه لأي شخصٍ من هذا العالم، وكأن هذا الشخص يتحسر على ذلك![4]

"لي اشتهاءٌ أن أنطلق وأكون مع المسيح"،[5] هكذا قال الرسول. فما رأيكم؟

---

[1] بولس (1تس 4: 13).

[2] أوشيه الراقدين.

[3] أي غير متعزٍ .

[4] أي أننا نتصرف كما لو كان مَن انتقل, حزينًا على فراقه للأرض. {المترجم}

[5] (في 1: 23).

أليست رغبته هذه أفضل بكثيرٍ؟! فإن كان عدم احتمالنا للحزن أكبر من رغبتنا في نوال ما يريده المسيحيون، فإننا بهذا نُبيِّن عدم رغبتنا في نوال ذلك.

الفصل العاشر

الانتقام

يوجد أيضًا دافعٌ كبيرٌ آخر لعدم الصبر, ألا وهو الرغبة في الانتقام، سواء كانت بدافعٍ مِن العجب، أو بغرض الأذى. إن كان بدافع العجب، فهو على كل حالٍ باطلٌ. وإن كان بدافع الأذى، فهو مكروهٌ دائمًا من الرب، وخصوصًا حينما تغضب بسبب أذيّةٍ أخيك لك. لأن هذا الدافع يصبح هو المسيطر عليك لأجل إتمام الانتقام، فيكون رد الأذية مضاعَفًا على مَن ابتدأ بها.

إن الانتقام مِن وجهة النظر الخاطئة يبدو كتهدئة للألم، أمَّا من جهة الحقيقة, فعلى العكس، إنه يُدان كأمرٍ شريرٍ. فما هو الفرق بين المثير والمُثار, إلا أن الأول هو من وُجِد مبتدئًا بالشر قبل الآخر؟ على أن كليهما يكون متهمًا في نظر الله بإيذاء إنسانٍ، لأنه نَهى عن كل إيذاءٍ, وأدانه.

ففي عمل الشر لا يوجد مراعاة لرأي رجل دينٍ، ولا تستطيع رتبةٌ كهنوتيةٌ أن تميّز أسباب عمل الشر عن بعضها،[1] فالوصية واضحةٌ أن الشر لا يجب أن يقاوَم بالشر.[2] إن الأعمال المتشابهة تستحق مجازاة متشابهة، وإلا فكيف نكون حافظين للوصية إن كنا لا نمتنع – فيما نمتنع – عن الانتقام؟! وأيَّة كرامةٍ نقدمها للرب إن كنا ندَّعي لأنفسنا الحق في الأخذ بالثأر؟

[1] فلا يقدر كاهنٌ أن يعطى الحِل بالانتقام، حتى لو كان المُنتقَم منه يستحق، أو كان المُنتقِم مظلومًا. {المترجم}

[2] (رو 12: 17).

فإن كنا نحن الفاسدون، والأواني الخزفية،[1] نستاء بشدةٍ من عبيدنا الذين يُعطون لأنفسهم الحق في الانتقام من العبيد رفقائهم، ونتفق معهم عندما يُظهِرون الصبر– ليس لأجل خضوعهم كعبيدٍ, أو لأجل الغيرة على كرامتنا كأسيادٍ – بل ونعطيهم كذلك مكافأةً أكبر مما كانوا سيأخذون لأنفسهم. فهل هناك أي ضررٍ من أي نوعٍ في ترك الأمر للرب العادل جدًا في حُكمه, والمقتدر جدًا في فعله؟

فلماذا إذًا نؤمن بأنه الديان، ولا نؤمن بأنه المنتقِم أيضًا؟ فلقد وَعد أنه سينتقم عوضًا عنَّا حينما قال: "لي النقمة أنا أجازى"،[2] أي: "أصبروا عليَّ وأنا سوف أكافِئ صبركم". فإنه حينما قال "لا تدينوا لكي لا تدانوا"،[3] ألم يكن يطلب مِنّا الصبر؟

فمَن هو الذي يمتنع عن إدانة الآخر, إلَّا مَن كان صابرًا على الانتقام لنفسه؟ وهل يوجد مَن يدين لأجل الغفران؟! حتى وإن غَفر, فسيظل متحفظًا في غفرانه على ما فعله الآخر بسبب عدم صبره، مغتصبًا لنفسه كرامة الديان الوحيد الذي هو الله.

كم مِن مصائبٍ اعتادت أن تحدث نتيجة لهذه النوعية من عدم الصبر! وكم مرة نُدِم على الانتقام؟! وكم مرة فعلَت المصائب بسبب حدتها, ما هو أسوأ من الأسباب التي أدت إليها؟! فكما أنه لا يوجد شيءٌ سببه عدم الصبر يمكن أن يتم بدون تهورٍ، هكذا لا يوجد شيءٌ يتم بتهورٍ إلَّا ويؤدى إلى التعثر، أو السقوط التام، وقد يؤدى أيضًا إلى الفناء.

علاوة على ذلك، فإنك إن انتقمت لنفسك انتقامًا ضعيفًا, فستُعتبر مجنونًا. وإن انتقمت أكثر مِن اللازم, فسوف تنال العقاب. فلماذا أَهتم إذًا بالانتقام إن كنت لا أستطيع أن أضبط مقداره بسبب عدم احتمالي للألم. فطالما أمكنني أن أصبر

---

[1] (2كو 4: 7).

[2] (رو 12: 19)، (عب 10: 30)، (تث 32: 35).

[3] (مت 7: 1)، (لو6: 37).

بهدوءٍ، فلن أشعر بألمٍ. وإن لم أشعر بألمٍ، فلن أرغب إذًا في الانتقام لنفسي.

الفصل الحادي عشر

الأسباب الأخرى لممارسة الصبر، وعلاقتها بالتطويبات.

أمَّا الآن، وبعد أن بذلنا قصارى جهدنا في تسجيل الأسباب الرئيسية لعدم الصبر، فلماذا ننشغل بباقي الأسباب التي قد تقابلنا، سواء في البيت أو في الخارج؟ إن أعمال الشرير التي تُقذَف بها أرواحنا بواسطة العديد من المحرضات, هي واسعةٌ ومنتشرةٌ. بعضها يكون خفيفًا، وبعضها شديدٌ جدًا. البعض يزدري بالخفيفة لضعفها، والبعض يستسلم للشديدة بسبب قوَّتها المهولة. فكُلما كان الجرح صغيرًا, كُلما قَلَّ الضجر. لكن حينما يكون الجرح كبيرًا, فلابد من علاج هذا الجرح بالصبر. فلنجاهد إذًا في احتمال عثرات الشرير، فإن ثباتنا الهادئ سوف يجعلنا نسخر من تحمس العدو.

فإن كنا بأنفسنا نجلب المصائب على أنفسنا، بتهورنا أو بمحض إرادتنا، فعلينا كذلك أن نحتمل بنفس الصبر ما يجب أن نلوم أنفسنا بسببه.[1] إن كنا نؤمن أن بعض الابتلاءات قد تأتينا مِن قِبل الرب، ولا نُظهِر صبرنا أمام الرب، فلمَن يجب أن نُظهر صبرنا إذًا؟! بل يليق بنا أن نشكر ونفرح أكثر وأكثر حينما نستحق التأديب الإلهي، لأنه قال: "إني كل مَن أُحبه أوبِّخه وأؤَدِّبه".[2] فطوبى للعبد الذي يُصمِّم الرب على تهذيبه، ويتنازل ويغضب منه.[3] طوبى لمَن يوبِّخه الرب بالحقيقة.

نحن إذًا في جميع الأحوال مُلزَمون بضرورة ممارسة الصبر على جميع

---

[1] أي إن كنا نُعاقَب لأجل أخطائنا، فلابد أن نحتمل بصبر.

[2] (رؤ 3: 19).

[3] أي أن الرب بغضبه من أحدٍ, ورغبته في تصحيح مساره، إنما يتنازل باهتمامه بهذا الإنسان.{المترجم}

المصائب، سواء كنا نتعرض لتوبيخ الرب نتيجة لأخطائنا الإرادية، أو نتيجة للأخطاء التي نقع فيها بسبب فخاخ الشرير. إن مكافأة هذا الصبر عظيمةٌ، ألا وهي السعادة.

ولِمَن أعطى الرب التطويب إلَّا للصابر؟! فلقد قال: "طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات".[1] وبكل تأكيدٍ لا يوجد مَن هو مسكين بالروح إلَّا مَن كان متضعًا، وهل يوجد مَن هو متضعٌ إلَّا الصابر؟ فإنه لا يستطيع أحدٌ أن ينكر ذاته بدون أن يكون أولاً صابرًا على إنكاره لذاته.

قال أيضًا: "طوبى للحزانى"[2] و"طوبى للباكين".[3] فمَن هو الذي يستطيع أن يتحمل الحزن بدون صبرٍ؟ لذا, فقد وعدهم الرب بالعزاء والضحك.

وقال: "طوبى للودعاء",[4] ولا يمكن بالتأكيد أن يُعطَى هذا اللقب لعديمي الصبر. كذلك حينما أعطى نفس التطويب لـ "صانعي السلام",[5] ودعاهم "أبناء الله"، فقولوا لي أرجوكم، هل توجد أيَّة علاقة بين العديم الصبر وبين السلام؟! لن يظن ذلك إلَّا الجاهل!

وحينما قال: "إذا طردوكم وعيروكم"،[6] وقال: "افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيمٌ في السماوات"،[7] فهو بالتأكيد لم يعِد بهذا الفرح لعديمي الصبر. فإنه لن يتهلل أحدٌ في الضيقات إلَّا إذا تعلَّم أولاً أن يستهزئ بها، ولن يستهزئ بها إلَّا مَن تعلَّم ممارسة الصبر.

---

[1] (مت 5: 3).

[2] (مت 5: 4).

[3] (لو 6: 21).

[4] (مت 5: 5).

[5] (مت 5: 9).

[6] (مت 5: 11).

[7] (مت 5: 12).

الفصل الثاني عشر

1- بعض الوصايا الإلهية الأخرى.

2- تعريف الرسول للمحبة وعلاقتها بالصبر.

أمَّا بالنسبة لممارسة السلام الذي يُسعِد الله كثيرًا، فهل يوجد في هذا العالم الذي يميل لعدم الصبر, مَن يسامح أخاه ولو لمرةٍ واحدةٍ فقط، ولن أقول لسبع مرات أو سبعين مرة سبع مرات؟[1] ومَن هو الذي يقاضي خصمه ويحل المسألة بالتراخي،[2] إلا إذا قَطع أولاً الحزن وقسوة القلب والمرارة، الأمور التي هي في الحقيقة سمومٌ ناتجة عن عدم الصبر؟ ومَن هو الذي يطيع الوصية القائلة: "اغفروا يُغفر لكم"[3] إن كان يتمسك بالخطأ في غياب الصبر؟

فلا يوجد مَن يمكنه أن يقدم قربانه قدام المذبح[4] وهو على خلافٍ مع أخيه، إلا إذا رجع إلى الصبر وصالح أخاه. إننا سنكون في خطرٍ إذا ما غربت الشمس على غيظنا،[5] فنحن غير مصرحٍ لنا بأن نمكث يومًا واحدًا بدون الصبر.

وبما أن الصبر يسبق كل أنواع التعليم السليم، فما هو العجب إذًا في أنه يساعد على توبة مَن انفصل عن زوجته، وينتظر توبته إن أراد أن يخلص، ويتوق إلى هذه التوبة ويَقنَع بتضرعاتها.[6] فيا لها من بَركةٍ عظيمةٍ يمنحها الصبر للرجل بأن يحميه مِن الزنا, وللمرأة بأن يقوِّمها.[7] كما أن الصبر هو مَن يجعل الأرمل أو

---

[1] (مت 18: 21، 22).

[2] (مت 5: 25).

[3] (لو 6: 37).

[4] (مت 5: 23، 24).

[5] (أف 4: 26).

[6] المقصود بالذي ينتظر ويتوق ويقنع هنا هو الصبر.

[7] أعتقد أنه يقصد هنا الزوج الذي يطلِّق امرأته بسبب خطأٍ قد ارتكبَته، فيجب عليه أن يعيدها ولا يزني عليها، كما يجب عليها أن تندم على خطأها، وكِلا الأمرين سيحتاج للصبر. {المترجم}.

الأرملة يُصرُّون على البقاء بدون زواجٍ، بالرغم من كونه أمرًا مُصرحًا به.

الصبر موجودٌ أيضًا في النماذج التي قدمها الرب عن التوبة, في الأمثلة التي قالها. فإنَّ صبر الراعي يجعله يبحث حتى يجد الخروف الضال،[1] لأن عديم الصبر لن يبالي بخروفٍ واحدٍ، أما الصابر فسوف يحتمل تعب البحث. الصبور المحتمِل سوف يحمل الخاطئ المنبوذ على منكبيه ويعود به إلى البيت، والأب الصابر يستقبل الابن الضال، ويُلبسه ويُطعمه، ويلتمس له العذر لدى أخيه الذي يغضب بسبب عدم احتماله[2]. إن الذي كان ميتًا عاش لأنه مضى في طريق التوبة, فالتوبة لن تفشل لأنها دائمًا تجد الصبر مُرحِّبًا بها.

وكيف يمكن أن يتعلم أحدٌ المحبة – التي هي قدس أقداس الإيمان وكنز المسيحية، كما تكلم عنها الرسول[3] بقوة الروح القدس – إلا بممارسة الصبر؟ لقد قال: "المحبة تتأنى"، وهذه الأناة مستمدة من الصبر، "وترفق" لأن الصبر ليس فيه أي شرٍ. "المحبة لا تحسد"، وهنا إشارةٌ خاصة للصبر بكل تأكيد. "لا تتفاخر" إذا جعلت نفسها صامدة بفعل الصبر. "لا تنتفخ ولا تقبح" لأن هذا لا يلائم الصبر. "ولا تطلب ما لنفسها" بل تُقدمه لغيرها إذا كان نافعًا لهم. "لا تحتد" لأنها لو احتدت، فماذا ترَكَت لعدم الصبر؟ لذا, فقد قال: إن المحبة "تحتمل كل شيءٍ وتصبر على كل شيءٍ", ليس لشيءٍ إلا لأنها صابرة. فلذلك, "المحبة لا تسقط أبدًا".

إنَّ كل شيءٍ آخر سوف يبطل وينتهي، "وأما النبوءات فستبطل، والألسنة فستنتهي، والعلم فسيبطل", "وأما الآن، فيثبت الإيمان والرجاء والمحبة", الإيمان الذي قَّدمه لنا صبر المسيح، والرجاء الذي ينتظره صبر الإنسان، والمحبة التي ترافق الصبر – كما علَّمَنا الرب.

---

[1] (لو 15: 3، 6).

[2] (لو 15: 11، 32).

[3] (1كو 13).

الفصل الثالث عشر

صبر الجسد

لقد تحدثنا حتى الأن عن الصبر ببساطةٍ وتنظيمٍ, على أنه أمرٌ يتعلق بالروح فقط. لكنني سوف أذكر صوَره الأخرى المتعلقة بالجسد، لكي ما نربح الرب[1] في النهاية. فبقدر ما أظهره الرب بنفسه كفضيلةٍ تخص الروح، بقدر ما قد مارسه كصفةٍ تخص الجسد أيضًا، لأن العقل الواعي يستطيع أن يربط بسهولةٍ بين عطايا الروح وأماكن استقبالها وسكناها في الجسد. والسؤال الآن، ما هو عمل الصبر في الجسد؟

أولاً: إماتة الجسد – وهو ما يُعتبَر قربانًا يصرف غضب الرب, عن طريق تقديم ذبيحة الانسحاق[2]– بتقديم ذبيحة للرب في صورة لبس الثياب الحقيرة والأكل الشحيح، إلى جانب الصيام، ثم الاكتفاء بأكلٍ بسيطٍ وبشرب الماء فقط، مع الاعتياد على المسوح والرماد. إنَّ صبرًا مثل هذا يعطي نعمةً لصلواتنا، ويمنحها قوةً ضد الشر، ويُميل أُذن المسيح إلهنا، ويصرف غضبه، ويمنحنا رحمته. لقد عاش ملك بابل[3] لمدة سبع سنوات محرومًا من آدميَّته في قذارةٍ وتهميشٍ لأنه أساء إلى الرب. لكن حينما قدَّم ذبيحة صبره الجسدي، لم يسترد فقط مملكته، بل وأرضى الرب كذلك – وهو أقصى ما يتمناه أي إنسانٍ.

وإذا ما تعمقنا في التأمل في درجات الصبر الجسدي، والتي هي أعلى وأكثر بهجةً، فسوف نجد أن صبر الجسد هو الذي يساعد على ضبطه لأجل الوصول للقداسة. هو مَن يحفظ الأرملة،[4] ويختم على عفة العذراء،[5] ويدفع الذين خَصُوا

---

[1] (في 3: 8).

[2] (مز51: 17).

[3] نبوخذ نصَّر (دا 4: 33، 37).

[4] (اتى 5: 3، 9، 10)، (اكو 7: 39، 40).

[5] (اكو 7: 34، 35).

أنفسهم إلى ملكوت السماوات.[1] لأن ما تبدأه الروح القوية, يكمله الجسد.

ثانيًا: إن صبر الجسد هو مَن يحارِب في وقت الاضطهاد، فإذا ما ضغط فكر الهروب بشدةٍ, يتصدى له الجسد. وإذا ما وُضِعنا في السجن، فإن الجسد المربوط والمقَيَّد بسلاسل، والموضوع في حبسٍ انفرادي، والمحتاج إلى النور، هو مَن يحتاج إلى صبر العالم كله حتى يحتمل. فإن الإنسان لن يحتاج لشيءٍ حينما يصل إلى النهاية السعيدة[2]– أي وقت معمودية الدم[3]– ويصعد إلى عرش الله, أكثر من صبر الجسد.

فإن كان "الروح نشيط" و"أمَّا الجسد فضعيف"،[4] فذلك بسبب افتقاره للصبر. ولكن هل من الممكن أن تخلص الروح، بل وحتى الجسد نفسه، بدون الصبر؟!

إن الرب حينما قال ذلك عن الجسد وأعلن أنه "ضعيفٌ"، قد أوضح أن الذي يحتاجه الجسد لكي يَقوى, هو الصبر. والذي به يمكن مواجهة أيَّة محاولةٍ لهدم الإيمان، أو للعقاب من أجل الإيمان، حتى يستطيع الجسد أن يحتمل ما احتمله الأنبياء والرسل بكل ثباتٍ، سواء الجَلد أو الحرق أو الصلب أو الوحوش أو السيف، وغَلبوا باحتمالهم.

---

[1] (مت 19: 12).

[2] التي هي الاستشهاد.

[3] (لو 12: 50).

[4] (مت 26: 41).

الفصل الرابع عشر

قوة الصبر المزدوج– صبر الروح وصبر الجسد– تجلَّت في القديسين.

بقوة هذا الصبر نُشر "إشعياء"، ولم يكُف عن الكلام فيما للرب. رُجِم "استفانوس" وهو يصلِّي لأجل الغفران لأعدائه.[1] أيضًا هذا المغبوط,[2] الذي جاهد في مواجهة كل هجمات الشيطان، والذي لم تُبعِده سرقة أبقاره، ولا احتراق ثروته من الأغنام، ولا مقتل أولاده بسقوط البيت عليهم مرة واحدة، ولا حتى إصابة جسده كله بجروحٍ مؤلِمةٍ، عن الصبر والإيمان الذي عاهد به الله. فضاعت هباءً كل ضربات الشيطان التي وجهها له.

رغم كل آلامه لم يفقد احترامه للرب، بل صار مثالاً يُحتذى به، وشاهدًا لنا على إتمام الصبر بإتقانٍ، سواء على مستوى الروح أو الجسد، لكي لا نستسلم أمام دمار حوائجنا الأرضية، أو فُقدان شخصٍ عزيزٍ، أو حتى أمام أيَّة محنةٍ جسديةٍ.[3]

فيا له من نصرٍ قد حققه الله على الشيطان في شخص هذا البطل، ويالها من راية انتصارٍ، هذه التي رُفعت لمجد الله ضد هذا العدو، حينما قابل هذا الرجل كل رسالةٍ مُرَّةٍ دون أن ينطق بكلمةٍ سوى كلمات الشكر لله. وحينما انتهر زوجته التي أتعبته أكثر من بلاياه، عندما حثَّته على اللجوء لأدويةٍ مغشوشةٍ.[4]

كم كانت مسرة الله، وكم كان الشيطان هائجًا كمَن قُطِّع إربًا، حينما استمر أيوب بثباتٍ وقدرةٍ يحك التقيحات التي تخرج من قرّوحِه،[5] ويُرجِع الديدان الخارجة من جروحه الغائرة – والتي هي أماكن غذائها في جسده المملوء بالحُفر– إلى

---

[1] (أع 7: 59، 60).

[2] أيوب البار (أي 1، 2).

[3] أي المرض.

[4] أي الابتعاد عن ذكر الله حينما قالت له: "بارك الله ومُت" (أي 2: 9).

[5] (أي 2: 8).

أماكنها بروحٍ مرحةٍ.[1]

وهكذا، حينما ضعفت كل سهام التجارب أمام درع وترس صبر أيوب – الذي هو أداة انتصار الله – لم يَرُدَّ له الله سلامة جسده فقط، بل أعطاه ضِعف ما فقده, ولو طلب أن يسترد أولاده ثانية لكان قد سمعهم يقولون له: "يا أبي".[2] لكنه فضَّل أن يستردهم "في ذلك اليوم"،[3] وأجَّل هذه البهجة – المضمونة تمامًا من قِبل الله – واحتمل الثكل اختياريًا، لأنه لا يمكنه أن يعيش بدون أيَّة مُمارسةٍ للصبر.[4]

الفصل الخامس عشر

مُلخَّص عام لفضائل وتأثيرات الصبر.

إننا نأتمن الله تمامًا على وديعة صبرنا. فإن كنت تأتمنه على احتمالك للظلم، فإنه سينتقم لك. وإن كنت تأتمنه على خسارةٍ، فهو سوف يردها لك. إن كان ألمًا, فهو الشافي. وإن كان موتًا, فهو المحيي.

فيا لها من كرامةٍ عظيمةٍ للصبر أن يكون الرب كمَن هو مديون له! لأن الصبر هو الحافظ لكل أوامره، والمنفِّذ لكل مأمورياته. إنه يُقوِّي الإيمان، ويقود للسلام، ويعضِد الخير، ويؤسِس التواضع، ويتأنى لأجل التوبة، ويختم على الاعتراف، ويضبط الجسد، ويحفظ الروح، ويُلجم اللسان، ويكبح عنف الأيدي، ويدوس التجارب تحت الأقدام، ويُبعِد الوشايات، ويُكلِّل الاستشهاد، ويعزِّي الفقير، ويعلِّم الغني الاعتدال، ولا يجهِد الضعيف فوق طاقته، ولا يُضني القَوي.

---

[1] تأمُّل وتخيُّل لمنظر أيوب وهو يحتك بالشقفة، وهو هنا يريد أن يبين كم كان الله سعيدًا بصبر أيوب، وكم صار الشيطان مخزيًا. {المترجم}

[2] أي إنه لو طلب من الرب أن يعودوا أحياء، لكان الرب قد أعادهم اليه.

[3] (2تي 4: 8).

[4] من الواضح أن أسلوب العلامة ترتليان كان تسخير كل تأملٍ وتفسير لأجل تأكيد رأيه، ولخدمة الموضوع. {المترجم}

إنه فرح المؤمن، وهو مَن يدعو الوثني للإيمان. يوصي العبد بخدمة سيده، ويوصي سيده بخدمة الله. يُزيِّن المرأة، ويؤهِّل الرجل. محبوبٌ في الطفولة، وممدوحٌ في الشبيبة، ومحُترَمٌ في الشيخوخة. هو لطيفٌ لكلا الجنسين في كل مراحل العمر.

والآن، دعونا نأخذ فكرةً عامةً عن ملامحه وسِماته.[1] إن ملامحه هادئةٌ وكلها سلام. جبهته ناصعةٌ غير منكمشةٍ بتجاعيد الحزن والغضب. حاجبيه مرتخيان برصانةٍ وحكمةٍ مفرحةٍ، عيناه منكسرتان بتواضعٍ وليس بحزنٍ، فمِه مختومٌ بعلامة الصمت المُكرَّم، هيئته مثل هيئة مَن هُم بلا هَم ولا خطية. يحرك رأسه مستهينًا بالشيطان، ويضحك مهددًا إيَّاه. ثيابه بيضاءٌ تليق بشخصه، وليست مهلهَلةً ولا منزعجةً من الرياح.[2]

إنَّ الصبر يجلس على عرش مملكة الروح الهادئ الوديع،[3] غير الموجود في الزوبعة ولا في صورة الضباب. بل في الصوت المنخفض الخفيف،[4] الواضح والبسيط، كما رآه "إيليا" في ثالث رسالةٍ.[5]

فحيثما يوجد الله يوجد أيضًا ابنه الذي ربَّاه – الذي هو الصبر. ومتى حَلَّ روح الله، يصحبه الصبر بلا افتراقٍ. فهل سيظل الروح معنا دائمًا إذا لم نَقبَل الصبر عند قبولنا للروح؟ كلَّا، أنا متأكد أنه لن يبقى معنا, فإنه سوف يتضايق في كل مكانٍ وفي أي وقتٍ بدون رفيقه وخادمه. ولن يمكنه تحمُّل ضربات عدوه الواقعة

---

[1] وهو هنا يتصور الصبر كإنسان له صفات تحمل القوة والاتضاع في نفس الوقت. {المترجم}

[2] أي رياح التجارب.

[3] أي روح الله.

[4] (1مل 19: 11، 12).

[5] (1مل 19: 10، 13). بعد أن سأله الرب مرَّتين قائلاً: "ما لك ههنا يا "إيليا""، تكلم معه في المرة الثالثة من هذا الصوت الخفيف. {المترجم}.

عليه وحده، بدون الأدوات التي تساعد على الاحتمال![1]

الفصل السادس عشر

صبر الوثنيين يختلف تمامًا عن صبر المسيحيين.

صبرهم محكومٌ عليه بالهلاك، وأما صبرنا فيؤدي إلى الخلاص.

هذه هي الوصية، وهذا هو التعليم. هذه هي أعمال الصبر السماوية السليمة. هذا هو الصبر المسيحي. ليس باطلاً، ولا يوجد به عيبٌ مِثل صبر شعوب الأرض.

لأجل هذا علَّم الشيطان أيضًا صبره الخاص لأتباعه، تمامًا مثلما علَّم الرب صبره لتلاميذه، لكي ما ينافس الرب أيضًا في هذا الأمر. فالشر والخير متساويان في المقدار، ولكن متضادان في الاتجاه بفرقٍ شاسعٍ.[2]

أنا أعني هذا الصبر الذي يجعل الرجال خاضعين لزوجاتهم اللواتي يَشترين رجالهن بالمال، ويعلمنهم أن يكونوا قوادين.[3] الصبر الذي يجعل النساء يحتملن كل عناء الملاطفات الإجبارية بعواطفٍ مصطَنَعةٍ، كَيما يتصيدن الرجال الأرامل الذين ليس لهم أولاد، ويحصلن على الميراث. الصبر الذي يجعل عبيد البطون[4] يستسلمون لعبوديةٍ حقيرةٍ، ويُخضِعون حرّيتهم لحناجرهم.

هذه هي أهداف الصبر التي يعرفها الوثنيون، وتجعلهم مُصِرِّين عليه بلهفةٍ لأجل هذه الممارسات الدنيئة. يصبرون لأجل المنافسات والثروة ودعَوات الحفلات، لكنهم لا يحتملون الصبر لأجل الرب.

---

[1] أي أن الروح القدس لن يساعد من لا يريد الاحتمال، بل سيتركه إلى أن يحتمل، وهو هنا يريد أن يوضح مدى ارتباط الروح القدس بفضيلة طول الأناة, التي هي من ثمر الروح. (غل 5: 22). {المترجم}

[2] كالفرق بين الموجب والسالب في الرياضيات. {المترجم}

[3] وهى رذيلة كانت منتشرة بين الوثنيين في تلك الأيام.{المترجم}

[4] (في 3: 19).

فلينظر صبرهم وصبر رؤسائهم إلى نفسه، لأن صبرهم تنتظره نار الهاوية. أمَّا نحن, فلنحب صبر المسيح, ولنعوضه عن الصبر الذي قدمه لأجلنا.

دعونا نقدم له صبر الروح وصبر الجسد، كمن يؤمنون بقيامة الجسد والروح.

□

التوبة

للعلّامة ترتليان

مُقدِّمة

كُتِب هذا النص حوالي سنة 203م قبل أن ينحرف "ترتليان"، وهو يعتبر من النصوص المهمة تاريخيًا، والتي بيَّنت طبيعة قوانين التوبة الكنسية، وكيف كانت تتم في العصور الأولى للمسيحية.

واضحٌ من النَص أن الهدف منه تعريف الموعوظين بأن التوبة لابد وأن تسبق المعمودية – بالنسبة للكبار– حتى ينال الإنسان غفران خطاياه السالفة، وألَّا يظن أحدٌ أن المعمودية وحدها كافيةٌ لنوال المغفرة بدون توبةٍ حقيقيةٍ، لأن الله لا يمكن خِداعه، فهو فاحص القلوب والكُلى (رؤ 2: 23).

مِن الواضح أيضًا أن بعض الموعوظين في هذه الفترة كانوا يستعجلون نوال المعمودية بدون اهتمامٍ بالاعتراف والتوبة الكاملة. مِما دفع الكثيرين للتهاون، وجعلهم يُخطئون بإرادتهم بعد المعمودية، وهو ما لا ينبغي التهاون فيه.

لذلك، فهو يبين أن الكنيسة ستسامح مَن يخطئ بعد المعمودية بسبب الجهل أو السهو، وأمَّا هؤلاء الذين يَعتبرون محبة الله وغفرانه فرصة لهم أن يتهاونوا في السلوك بحياة التوبة، فإن الكنيسة ستسمح لهم بالاعتراف والتوبة لأول مرة بعد المعمودية، مع قانون توبة بسيط. أمَّا إذا تكرر الأمر، فستكون هناك وقفة شديدة.

ليس الغرض من النَص هو التخويف من الهلاك، لكن الهدف هو **إظهار الجدِّية والإخلاص في حياة التوبة**. "ترتليان" يدعو الخاطئ لعدم اليأس من إمكانية التوبة مرة أخرى، ويحثّه على إظهار خجله أمام الله، بإذلال الذات، والصوم والميطانيات، ولبس المسوح، والبعد عن الملذات، كتعبير عن حب الإنسان لله وشعوره بالخجل لأنه أحزن قلب الله، وليس للتكفير عن ذنبه.

والنَص يؤكد ضرورة الاعتراف على الكهنة، وعدم الخوف من أن يُفشي

الكاهن أسرار المعترِف وخطاياه, وعدم الخجل من الاعتراف، لأن الفائدة التي سيحصل عليها المُعترِف سوف تكون أكثر بكثيرٍ.

في هذا النص يؤكد لنا العلَّامة "ترتليان" أن:

1- استنارة العقل نعمةٌ يعطيها الله لأولاده، أمَّا الذين يفتقدون لنور العقل فلن يجدوا الخلاص.

"فإن هم أبحروا في بحر العالم طوال الحياة بدون دفَّة العقل، فلن يعرفوا كيف يجتنبون الزوبعة المزمعة أن تأتي على العالم." (الفصل الأول)

2- ضرورة ممارسة سرّ التوبة والاعتراف قبل معمودية الكبار, لأن فاعلية التطهير من الخطايا في المعمودية لن تتم إلا حينما يكون الإنسان راغبًا في حياة التوبة.

"فأيَّة نجاسة مستعصية، وأي دنس يظهر في قلب الإنسان بسبب الجهل، تكنسه التوبة وتمسحه وتطرحه خارجًا، مما تجعل القلب بيتًا نظيفًا مُعَداً لحضور الروح القدس." (الفصل الثاني)

"نحن لا نعتمد لكي نكُف عن الخطية، بل لأننا قد أقلعنا عنها بالفعل منذ أن اغتسَلت قلوبنا." (الفصل السادس)

3- مجرد الرغبة في عمل الشر هي خطية، حتى لو لم يتم عمل الشر. "تجب الهروب والتطهر بالتوبة، ليس فقط من خطايا الفعل، بل ومن خطايا الإرادة أيضاً." (الفصل الثالث)

4- التوبة هي طوق النجاة للخاطئ. "فيا مَن أنت خاطئ مثلي، هل سنسارع بكل قوةٍ إلى هذه التوبة، ونحتضنها بشدةٍ، مثلما تحتمي مَن تحطمت سفينته بألواح الخشب الطافية؟ إن هذا سوف يسحبك حينما تغرق في أمواج الخطايا، وتحملك صَوب ميناء الرحمة الإلهية." (الفصل الرابع)

5- التزامنا بتنفيذ وصايا الرب نابعٌ من طاعتنا له لثقتنا فيه، وليس لكوننا فكَّرنا ووجدنا أن الوصية جيدةٌ. "لكن بالتأكيد إن ما تجعلنا نلتزم بطاعة الوصية ليس هو حقيقة أنها جيدةٌ، بل حقيقة أن الله قد أمر بها." (الفصل الرابع)

6- المؤمن لا يجب أن يتهاون في تكرار الخطايا التي سبق وأن قدم عنها توبة، لأن ذلك معناه أن مخافة الله قد توقفت في قلبه.

"فليس لك أن تحتج الآن بعد أن تعرفت على الرب وقبلت وصاياه – أي بعد أن تعهدت بالتوبة عن الخطايا السابقة – فتعود ثانيةً للخطايا بحجة الجهل. إنك كُلما عرفت أكثر، كُلما لَصِقَت بك خطية العصيان أكثر. فإن كان سبب توبتك عن خطاياك هو أنك بدأت في مخافة الله، فلماذا نقضت ما قد بدأته بمخافتك، إلا لكونك قد توقفت عن المخافة؟ لا يوجد شيءٌ يُفسِد المخافة سوى العصيان." (الفصل الخامس)

7- الله ليس بحاجةٍ لأن يُظهر نفسه، لأن وجوده واضحٌ تمامًا من خلال عطاياه. (وهي رسالة يقدِّمها العلَّامة ترتليان للملحِدين في كل

العصور، وبالأكثر في عصرنا هذا).

"لأن الجهل بوجود الله مستحيلٌ، فهو واضحٌ علانيةً أمام الناس، ويمكن إدراكه مِن خلال عطاياه السماوية." (الفصل الخامس)

8- التوبة والاعتراف هما علاج الخطية المتكررة. "لا تدَعوا أحدًا تخجل، لأن المرض المتكرِّر تحتاج لتكرار الدواء." (الفصل السابع)

9- يشترك الجسد والروح معًا في ممارسات التوبة بعد الاعتراف بالخطية على الكاهن.

"فإنك بتغذينك لصلاتك بالصوم، وبأنينك ونوحك وصراخك إلى الرب إلهك، وبانحنائك عند أقدام الكهنة وجثوك أمام أحباء الله، توجِّه كل الأخوة أن يكونوا سفراءً تحملون توسلات استرحامك إلى الله. إن كل هذه الأعمال المصاحِبة للاعتراف تتم لأجل كمال التوبة." (الفصل التاسع)

10- الله يجازي الإنسان على قدر تعبه من أجل محبته لله، والتي جعلته يحزن لأنه أحزن قلب الله.

"صدِّقني، كُلما قلَّت شفقتك على نفسك، كُلما أشفق الله عليك." (الفصل التاسع)

11- الاعتراف قد يكون مُحرِجًا للإنسان، لكن مَن يريد العلاج لا يجب أن ينظر لمرارة الدواء.

"لكنك تقول إنه أمرٌ متعبٌ أن نذهب للاعتراف. نعم، لأن الشر يؤدي إلى الشقاء. لكنك حينما تضع التوبة يبطل التعب، لأنه يتحول إلى منفعة."

"لكن، ما هي المكافأة التي يَعِدنا بها الخجل حينما نُخفي أخطاءنا؟! ...هل من الأفضل أن نُدان في السرِ، عن أن ننال الحلِ في العلن؟!" (الفصل العاشر)

المترجم

التوبـة

الفصل الأول

توبة الوثنيين

يعتقد الناس بحسب فهمهم أن التوبة هي انفعالٌ عقليٌ, يَنتُج عن استياءٍ من مشاعرٍ حدثت في الماضي, وتكررت بشكلٍ أسوأ. أنا أقصد هذه النوعية من الناس التي كُنَّا على شاكلتها في الماضي– عميانًا بدون نور الرب. وهم بعيدون تمامًا عن فهم التوبة, قدر بعدهم عن مبدع العقل نفسه.

في الحقيقة, إن العقل هو شيءٌ يخص الله، لأن الله خالق الكل لم يهيئ أو يدبِّر أو يرتِّب شيئًا بدون العقل. لذلك، لا شك أن كل مَن يجهل الله يجهل أيضًا ما يخُصه. ولا يمكن أن توضع خزانة الكنز في متناول يد الغرباء، فإن هم أبحروا في بحر العالم طوال الحياة بدون دَفَّة العقل، فلن يعرفوا كيف يجتنبون الزوبعة المزمِعة أن تأتى على العالم.

علاوة على ذلك، فإن طريقة تصرفهم بلا عقلٍ في ممارسة التوبة, ستكون كافيةً لتوضيح هذه الحقيقة. إنهم يمارسونها حتى حينما يعملون الأمور الصالحة، فهُم يتوبون عن الإيمان السليم، وعن المحبة، وعن نقاوة القلب، وعن الصبر والرحمة, بالضبط مثلما يتوبون عن أي سقوطٍ في مشاعر جحود!

إنهم يلعنون أنفسهم عندما يصنعون الخير، وهذا النوع من التوبة بالذات – والذي يقدمونه عن أفضل أعمال قلوبهم– يُذَكِّرهم باهتمامٍ ألَّا يفعلوا هذه الأمور الجيدة مرة أخرى! وفى المقابل، حينما يتوبون عن الأعمال الشريرة، نَجِدهم يضعون أحمالاً أخف!

باختصار، إنهم يجعلون الفضيلة نفسها وسيلة للخطية, أكثر من كونها وسيلة للأعمال الصالحة.

الفصل الثاني

التوبة السليمة هي أمرٌ إلهيٌ أوجَده الله، ويخضع لشرائعه.

لو كان هؤلاء يتصرفون كمَن لهم علاقة بالله – وبالتالي سيصبح لهم علاقة بالعقل – لتأملوا أولاً في أهمية التوبة بشكلٍ جيدٍ، وما كانوا طبَّقوها بهذه الطريقة الفاسدة لتأديب أنفسهم. التي بواسطتها يجعلون التوبة سبب لإدانة أنفسهم.

باختصار، إن علاقتهم بالله كانت ستجعلهم يضعون حدًّا لتوبتهم، لأنهم كانوا سيَصِلون أيضًا إلى حدٍ للخطية, بمخافتهم لله.

لكن إن لم توجد المخافة، فلن يكون هناك تقويم،[1] وإن لم يوجد التقويم ستكون التوبة باطلةً بكل تأكيد، لأنها ستفتقر لوجود الثمرة التي لأجلها غرس الله التوبة، وهذه الثمرة هي خلاص الإنسان.

فبعد أن كَثُرَت وتعاظمت خطايا تهور الإنسان التي بدأت بآدم الإنسان الأول, وبعد إدانة الإنسان والعالم الذي وُهِب له، وبعد طردِه من الجنة وخضوعه للموت، تعهد الله بمنح الغفران لمخلوقِه وصورته[2] حينما عاد إلى رحمته سريعًا، ودشَّن التوبة بنفسه منذ ذلك الحين, بإبطال حُكم غضبه الأول. وهو بهذا قد جمع البشر معًا لنفسه، وأمدَّهم بالكثير مما فرَّقه عليهم بكَرَمه.[3] ولمَّا وجد أنهم جاحدون في أغلب الأوقات، حضَّهم طوال الوقت على التوبة، وأرسل لهم أصوات الأنبياء جميعًا كي يُنبئوهم، ثم وعد بالنعمة المجانية التي عزم أن يسكبها في آخر الأيام، كفيضٍ من النور على العالم بواسطة روحه. لقد أمر معمودية التوبة أن تتقدم الطريق لأجل الإعداد أولاً، بواسطة علامة وختم التوبة، لهؤلاء الذين قد دعاهم[4] بنعمته ليرثوا

---

[1] أي للنفس.

[2] أي الإنسان (تك 1: 26،27)

[3] (مز112: 9)

[4] (رو 8: 30)

الوعد الأكيد الذي مُنح "لإبراهيم".

إن يوحنا لم يصمت, بل قال: "توبوا، لأنه قد اقترب الخلاص مِن الشعوب"،[1] فالتوبة هي التي تأتي بالخلاص حسب وعد الرب. لقد وجَّه يوحنا "السابق" التوبة التي كرز بها, إلى الله الذي يقوم بدوره بتطهير عقول البشر. فأيَّة نجاسة مستعصية، وأي دنسٍ يظهر في قلب الإنسان بسبب الجهل، تكنسه التوبة وتمسحه وتطرحه خارجًا. مما يجعل القلب بيتًا نظيفًا مُعَدًّا لحضور الروح القدس، الذي سوف يأتي في الحال بما يحمله من عطايا سماوية، ويدخل إلى القلب بسعادة.

باختصار، عنوان هذه العطايا هو خلاص الإنسان، والخطوة الأولى ستكون بمحو الخطايا السابقة. هذا هو عمل التوبة والداعي إليها، أن تأخذ على عاتقها عمل الرحمة الإلهية، لأن كل ما يفيد الإنسان يخدم الله بكل تأكيدٍ.

إن قانون التوبة الذي تعلَّمناه حينما عرفنا الرب، له شكلٌ محدد، ولا يوجد فيه أي حديثٍ عن قانونٍ قاسٍ للتوبة عن الأفعال والأفكار الصالحة. الله لم يفرض أيَّة عقوبة لأجل نبذ الأعمال الصالحة لأنها تنتمي إليه. فبما أنه هو الذي أوجدها، فلابد له أن يدافع عنها أيضًا. وبما أنه هو الذي يقبلها، فهو إذًا الذي يكافئ عنها.[2]

وبما أن الله هو القاضي الذي يُشرِف على تحقيق العدل والحفاظ عليه، والذي هو أغلى شيءٍ عنده، وبما أنه رَتَّب كل تعاليمه بما يراعي العدل– مثلما في أمورنا العامة، كذلك بالنسبة للتوبة – فهل يوجد أي شكٍ في أن الله سوف يحكم بالعدل؟!

إن هذا العدل سوف يتحقق فقط في حالة التوبة عن الخطايا[3] بكل تأكيد. بالإضافة إلى أنه لا يوجد أي عملٍ آخر يستحق أن يُطلَق عليه اسم "خطية" سوى العمل الشرير. فلا يُخطئ أحدًا لأنه عمل شيئًا صالحًا, لكنه إن لم يكن قد أخطأ،

---

[1] وهذه الآية هي خليطٌ بين ما ورد في (مت 3: 2) وما ورد في (لو 3: 6)، وهذا لأن ترتليان كان يكتب أو يقول الآيات معتمدًا على الذاكرة. {المترجم}

[2] أي أن الأعمال الصالحة تتم لأجل إرضائه، فلذلك هو من يكافئ عنها.{المترجم}

[3] وليس التوبة عن فعل الخير والشر معًا، مثلما يفعل الوثنيون. {المترجم}

فما هو الداعي لأن يقتحم منطقة التوبة كمن فعل أمرًا خاطئًا؟! لماذا نفرض أمرًا يتعلق بالشر على الخير الذي فعله؟! إن هذا هو ما سوف يحدث حينما يُطلَب مِن أحدٍ أن يقوم بأمرٍ لا يلزم أن يفعله،[1] لأنه حينما يأتي الوقت الذي يجب فيه أن يفعله, فحينئذٍ سيغفله.

الفصل الثالث

يمكن تقسيم الخطايا إلى جسدية وروحية، وكلاهما سيخضع للفحص والعقاب الإلهي بنفس الدرجة، حتى لو كانا غير متساويَين في نظر الناس.

إن كان يبدو شيئًا غير مهمٍ، إلا أن المناسبة تتطلب منّي بكل تأكيدٍ أن أكتب عن هذه الأشياء التي من الواجب تقديم التوبة عنها، وهي الأمور التي تندرج تحت اسم "الخطية".

فإننا بمجرد أن نعرف الرب،[2] " يُلتفت"[3] إلى أرواحنا مِن قِبَل خالقها، فتخرج إلى معرفة الحق طوعًا، وتدخل إلى معرفة الوصايا الإلهية, التي عن طريقها تتعلم أن الخطية هي أي شيءٍ يأمرنا الرب أن نمتنع عنه. وبما أن الجميع يتفق على أن الله هو جوهر الخير، فبالتأكيد لا يوجد شيءٍ يُكدر صانع الخيرات سوى الشر، لأنه لا توجد أيَّة مودَّةٍ بين المتناقضات.

باختصار، وبدون أدنى مشقة، يمكن أن نقول إن هناك خطايا شهوانية – أي جسدية – وأخرى روحية، وبما أن الإنسان يتكون من اتحاد اثنين،[4] فخطاياه لابد وأن تكون نابعة مِن أصل تكوينه.

---

[1] أي التوبة.

[2] بالمعمودية والميرون.

[3] (لو 22: 61)

[4] أي الجسد والروح.

ليس صحيحًا أن الجسد والروح يتفقان على الخطأ بشكلٍ مختلفٍ[1]– وإلا سيكون كلاهما واحدًا، لأنهما يفعلان شيئًا واحدًا[2]– لئلا يميز أحد بين خطايا كليهما بما يتناسب مع اختلاف طبيعتيهما، ويَعتبر أن أحدهما أخف أو أثقل من الآخر، رغم أن كلٍ منهما – الجسد والروح – بالفعل خليقة الله. الأول صنعة يديه, والأخرى كملت بنفخته. وبما أنهما مِن صُنع يدي الرب، فإن خطية أيًا منهما سوف تُغضِب الرب.

هل يمكنك أن تميِّز بين أعمال الجسد والروح, اللذَين يتحدان ويشتركان في الحياة والموت والقيامة بتآلفٍ تام؟ إن كليهما سيقوم "في ذلك اليوم"[3] إما للحياة وإما للدينونة،[4] لأنهما سيكونان قد أذنبا معًا، أو عاشا غير مذنبَين معًا.

إن هذا هو ما نريد الوصول إليه في النهاية, حتى يمكننا أن نفهم أن التوبة عن خطية أي عنصرٍ من عنصري تكوين الإنسان, ليست أقل أهمية من ضرورة التوبة في حالة أن يكون كلاهما قد أخطأ، لأن جريمتهما واحدةٌ، ودَيَّان كليهما واحدٌ، ألا وهو الله. بناءً على ذلك، فإن الدواء الشافي لكليهما واحدٌ، ألا وهو التوبة.

إن سبب تسمية الخطايا بالروحية أو الجسدية يتوقف على نوعية الخطية, أهي خطية فعلٍ أم خطية فكرٍ؟ فخطية الفعل هي خطية جسدية لأن الفعل يمكن رؤيته ولمسه مثل الجسد، أما خطية الفكر فهي خطية روحية لأن الروح لا تُرى ولا تُمسَك. بناءً عليه، يجب الهروب والتطهُّر بالتوبة، ليس فقط من خطايا الفعل، بل ومن خطايا الإرادة أيضًا. فحتى لو كان العقل البشري المحدود يحكم فقط على

---

[1] لأن الروح قد تخطئ بدون الجسد.

[2] وهو هنا يريد أن يفرق بين دور الجسد ودور الروح في اقتراف الخطأ، فقد تُخطئ الروح دون أن يُخطئ الجسد بإتمامه للخطية. ينبغي إذًا التوبة عن هذه الخطايا حتى ولو كانت غير ظاهرة للناس، لأن خطأ أيًا منهما متساوٍ في نظر الله، بِغضّ النظر عن طبيعة أو قدرة كليهما. {المترجم}

[3] (مت7: 22)، (لو10: 12)، (لو17: 31)، (يو14: 20)، (2تي1: 18)، (2تي4: 8)

[4] (يو5: 29)

خطايا الفعل لكونه لا يستطيع اختراق مخابِئ خطايا الإرادة أيضًا، فلن يجعلنا هذا نستخِف بجرائم الإرادة التي يراها الله، فإنه قادرٌ على كل شيءٍ. لا يمكن أن يبتعد أي مصدرٍ للخطية عن عينيه مهما كان، فهو لا يَجهل هذا المصدر، ولن يفلت من إدانته، لأنه لا يخادع بصره، ولا يكيل الأمور بمكيالين.

أمَّا عن حقيقة أن الإرادة هي أصل الفعل، فإنه باستثناء الخطايا الناتجة عن الصُدفة[1] أو العوز[2] أو الجهل، فإن بقية الخطايا مرتبطة بالإرادة. وبما أن الإرادة هي أصل الفعل، ألا نعتبرها بالحري المسئولة التي يجب أن تُعاقَب على الجُرم؟ أم أنها ستكون مبرَّرة إن كانت هناك أيَّة صعوبةٍ في إتمامها؟ بالطبع لا، لأنها سوف تكون متَّهَمة أمام نفسها، فهل لها العُذر إن فعلَت ما في وسعها لأجل إتمام الخطية ثم خاب أملها؟ ألم يعلن الرب أنه يُكمل الناموس حينما حرَّم خطايا الإرادة مثل باقي الخطايا، وبالأخص حينما عرَّف الزاني بأنه ليس فقط مَن يعتدى على امرأة غيره، بل هو أيضًا مَن دنَّس امرأةً بشهوة نظره؟[3] وبالتالي سيكون أمرًا خطرًا بما فيه الكفاية على العقل أن يفكر فيما هو مُحرَّم، وأن يتهور وينفِّذه بإرادته.

فلو كانت إرادة الإنسان قوية هكذا، فإنها حتى ولو لم تُرضِ نفسها بإشباع رغبتها، فإنها ستُعامَل معاملة مَن أتم الفعل، وبالتالي ستُعاقَب. مِن العبث أن يقول أحدٌ: "لقد أردت أن أفعل، ولكنني لم أفعل حتى الآن"، لأنك إما ستكون قد أتممت الفعل بكونك أردته، أو لم تتمه لكونك لم تُرِده. لكنك باعترافك بشعورك – أي بأنك أردت – تحكم على نفسك بالإدانة، لأنك إن اشتقت أن تعمل عملاً صالحًا, فستكون قلقًا إلى أن تُتمه. كذلك إن كُنت لم تعمل ما هو شرير, فذلك لأنك لم يكن لك شوقٌ لإتمامه. بمجرد أن تُحدِّد موقفك، سواء بإرادتك للشر أو بعدم إرادتك للخير، سوف تكون مذنِبًا.

---

[1] يقصد الهفوات.

[2] هذا التبرير غير سليمٍ, لأن العوز ليس مبررًا للخطية، وإلا فأين الإيمان؟ {المترجم}

[3] (مت 5: 27،28)

الفصل الرابع

التوبة تناسب جميع أنواع الخطايا،

ويجب ممارستها, ليس فقط لأجل فوائدها، لكن لأن الله قد أمر بذلك.

إن الله الذي حدد عقوبةً للحُكم على أيَّة خطية قد ارتُكبَت – سواء بالجسد أو بالروح – بالفعل أو بالنية، هو نفسه قد تعهد بأن يَمنح الغفران بواسطة التوبة, قائلاً: "توبوا... واحيوا"،[1] وقال أيضًا: "حيٌّ أنا يقول الرب، إني لا أُسَرُّ بموت الشرير، بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا".[2] التوبة إذًا هي الحياة, لكونها أفضل من الموت.

فيا مَن أنت خاطئ مثلي – كَلَّا, بل أنت أقل مِنِّي في الخطأ، لأنني أعترف بتفوقي في الخطايا – هل ستسارع بكل قوةٍ إلى هذه التوبة، وتحتضنها بشدةٍ مثلما يحتمي مَن تحطمت سفينته بألواح الخشب الطافية؟[3] إن هذا سوف يسحبك حينما تغرق في أمواج الخطايا، ويحملك صَوب ميناء الرحمة الإلهية.

تمسَّك بفرصة السعادة غير المتوقَعة، يا مَن لم تكن يومًا سوى "نقطة دلوٍ"[4] و"عصافة البيدر"،[5] و"إناء خزفٍ"[6] في عيني الرب. فقد تصبح من ذلك الوقت[7] فصاعدًا "شجرة مغروسة عند مجاري المياه، التي تعطي ثمرها في أوانه، وورقها لا

---

[1] (حز 18 :30، 32)

[2] (حز 33: 11)

[3] تأمل لطيف.

[4] (أش 40: 15)

[5] (دا 2: 35)

[6] (مز 2: 9) (رؤ 2: 27)

[7] وقت البدأ في حياة التوبة.

يذبل"[1] ، ولا "ترى الحَر"،[2] ولا "الفأس".[3]

تُب عن المعاصي، تُب عن محبة ما يكرهه الله لكي تجد "الحق".[4] إننا أنفسنا أنفسنا لا نسمح لعبيدنا من الغلمان بأن يحبوا الأشياء التي نكرهها نحن، لأن الطاعة الاختيارية للوصية يَلزمها توافُق العقول.[5]

إن أردنا أن نفحص فوائد التوبة، فإن موضوع البحث سيكون غزيرًا ويحتاج لفصاحة شديدة، لكن دعونا نتأكد من ثبات نقطةٍ واحدةٍ حسب إمكانياتنا الضعيفة، ألا وهي أن وصية الرب لابد وأن تكون الأحسن والأفضل. إنني أعتبرها وقاحة مِنّي أن أدافع عن صلاح وصية إلهية، لكن بالتأكيد ما يجعلنا نلتزم بطاعتها ليس هو حقيقة أنها جيدة، بل حقيقة أن الله قد أمر بها. لأن عظمة القدرة الإلهية لها الحق الأول في فرض حكم الطاعة. وسلطان مَن يُعطِي الأمر له الأولوية عن مصلحة الخادم.[6]

والآن: "هل هو جيدٌ أن تتوب أم لا؟" لماذا تتوانى والرب قد أمر بها، بل وحذَّر أيضًا؟[7] فلقد قدَّم دعوة للخلاص كمكافأةٍ، قائلاً بقَسَمٍ: "حيٌّ أنا"،[8] رغبةً منه بأن نثق به.

فيا لها من بركةٍ قد أخذناها نحن الذين أقسم لنا الرب، وياله من خزيٍ لنا إن لم نؤمن بالرب، حتى بعد أن أقسم لنا. لذلك، فأي شيءٍ يأمر به الرب القدير، وأي

---

[1] (مز 1: 3)

[2] (أر 17: 8)

[3] (مت 3: 10)

[4] (يو 14: 6)

[5] وهو يقصد توافق عقل الإنسان مع عقل الله. {المترجم}

[6] هذا طبعًا مِن وجهة نظر السيد. لكن الأمر مختلفٌ في حالة التوبة، لأنها ستكون مفيدة للإنسان, حتى لو شعر بصعوبتها في البداية. {المترجم}

[7] من عدم التوبة.

[8] (خر33: 11).

شيءٍ يؤكده بقَسمٍ، سنكون مُلزَمين بالطبع بأن ننفذه ونحفظه بأقصى جِدية. فباستمرارنا بثباتٍ في الإيمان بالعهد المقدس الذي للنعمة الإلهية،[1] يمكننا بنفس الطريقة أن نحافظ على ثمار هذه النعمة وفوائدها.

الفصل الخامس

لا يجب العودة إلى الخطية[2] بعد التوبة عنها[3].

هذا هو ما أريد أن أقوله: إن التوبة التي سبق أن أظهرناها، والتي أوصت بها نعمة الله، هي التي ستعيدنا إلى نعمة الوجود مع الله.[4] فمتى تعلَّمنا التوبة وتعهدنا بها مَرَّةً، وجب علينا ألا نَنقض هذا العهد بعد ذلك بتكرار الخطايا.

ليس لك أن تحتج الآن بعد أن تعرَّفت على الرب وقبِلت وصاياه، أي بعد أن تعهدت بالتوبة عن الخطايا السابقة، فتعود ثانية للخطايا بحجة الجهل, فكُلما عرفت أكثر، كلما لصقت بك خطية العصيان أكثر. إن كان سبب توبتك عن خطاياك هو أنك بدأت في مخافة الله، فلماذا نقضت ما قد بدأته بمخافتك, إلا لكونك قد توقفت عن المخافة؟ فإنه لا يوجد شيءٌ يُفسِد المخافة سوى العصيان.

وبما أن مَن أخطأ بسبب الجهل بالرب لا يُستثنى من التعرض للعقاب أيضًا – لأن الجهل بوجود الله مستحيلٌ، فهو واضحٌ علانيةً أمام الناس، ويمكن إدراكه من خلال عطاياه السماوية – فكم هو سيكون أكثر خطورة لمَن يَعلم بوجود الله ويستخِفّ بذلك؟

---

[1] أي نعمة التوبة.

[2] وهو يقصد الفعل الإرادي للخطية. {المترجم}

[3] (1يو3: 9)، (1يو5: 18) وقد قال الوحي الإلهي هذا الكلام على لسان يوحنا حتى لا يتهاون أحد ويرتكب نفس الخطايا، متكلاً على أن الله رحيم يغفر الخطايا. {المترجم}

[4] أي العودة للصورة الأولى التي كان عليها الإنسان قبل السقوط، بالوجود الدائم في حضرة الله. {المترجم}

فإن هذا الإنسان الذي يستخِفُّ الآن بالله، ويسيء إلى عطية الله التي هي فَهم الخير والشر, والتي قد حصل عليها بمعونته, فهو في الحقيقة يُسيء إلى هذه العطية بالرجوع إلى ما قد سبق وعرف أنه ينبغي أن يجتنبه، والذي هو من المفروض أن يكون قد اجتنبه فعلاً.[1] إنه يرفض المعطِي بترك العطية، ويُنكِر المحسِن بعدم إكرامه للإحسان. فكيف يمكن لهذا الإنسان أن يَقبل مَن يرفض عطيته؟ فهو لذلك يبدو, ليس فقط كمتمردٍ على الرب، بل كجاحدٍ بالأكثر.

علاوة على ذلك، إنَّ هذا الإنسان لم يرتكب خطية هيِّنة ضد الله. فإنه بعد أن جحد الشيطان عدو الله بالتوبة[2] – وهو بذَلك قد أخضع الشيطان للرب – عاد وأقامه ثانيةً بعودته إليه، وجعل نفسه سببًا لابتهاج الشيطان، فتهلل الشرير ثانيةً أمام الله باسترداده لفريسته.

إن هذا أخطر ما يمكن أن يُقال، لكنه من الضروري أن يُوضَّح لأجل الإصلاح. أليس هو بفعله هذا يُقيم الشيطان مكان الله؟ فمِن الواضح أنه قد صنع مقارنةً بين اثنين يعرفهما، ثم جعل الشيطان بشكلٍ رسميٍ هو الأفضل، وفضَّل أن يكون له خادمًا مرة أخرى. وبذلك، فإن هذا الذي قد ابتدأ أولاً بإرضاء الرب بتوبته عن الخطايا، سوف يُرضِي الشيطان بتوبته ثانيةً عن التوبة الأولى. وسيكون أكثر رفضًا من قِبل الرب, بقدر ما سيكون أكثر قبولاً من عدوه.[3]

لكن البعض يقول: "يمكن إرضاء الله بالتوكل عليه بالقلب والعقل، حتى ولو لم يحدث هذا في الأفعال الظاهرة. فالبعض يخطئون دون أن يحدث أي ضررٍ لمخافتهم لله أو لإيمانهم به"!![4]

فلنعتبر إذًا أنهم يدنسون الزواج دون ضررٍ لعفتهم! ويمزجون السُم لوالديهم

[1] حينما قدَّم توبة عن هذا الفعل.

[2] التي تسبق المعمودية.

[3] عدو الرب، الذي هو الشيطان.

[4] وهو ما يقوله البعض الآن: "ربك رب قلوب". {المترجم}

دون أي ضررٍ لواجباتهم كأبناء! ولذلك يدفعون أنفسهم إلى أسفل الجحيم دون أي ضررٍ لغفران خطاياهم، لأنهم يخطئون دون أن يفسدوا مخافتهم![1] إن هذا أيضًا مثالٌ أوَّليٌ للضلال، ألا وهو القول بأنهم يخطئون بسبب الخوف.[2] فلنعتبر إذًا أنهم قد أخطأوا بسبب خوفهم! ولنعتبر أيضًا مَن لم يخطئ إلى الله أنه لا يهابه نهائيًا، إذا كان الخوف هو عُذر الخطية!

إن هذه النزعات تَنبت عادةً من بذرة المنافقين، الذين صداقتهم للشيطان لا تنقطع، وتوبتهم لم تكن عن إيمان.

الفصل السادس

يجب ألَّا نتهاون عند نوال المعمودية،

فإنها تحتاج أن يسبقها توبة ظاهرة بتعديل نمط الحياة.

أي شيءٍ اذًا قد سعيت لاقتراحه بإمكانياتي المتواضعة بخصوص التمسك بالتوبة من أول مرةٍ، والحفاظ عليها على الدوام، إنما هو يتعلق بالتأكيد بكل مَن سلَّموا أنفسهم للرب، وصاروا كلهم يتنافسون لأجل الخلاص ونوال معونة الرب.[3]

لكنه أمرٌ ضروريٌ بالأخص بالنسبة للمبتدئين الصغار، الذين بدأت آذانهم تشعر بندى الأحاديث الإلهية،[4] والذين هم مِثل الأشبال الرضيعة التي تحبو ولم تنفتح أعيُنها بعد، ورغم ذلك يؤكدون أنهم قد أقلعوا عن أفعالهم السابقة، ويعتبرون

---

[1] من الواضح جدًا أسلوب "ترتليان" في السخرية من الأسئلة المستفزة. {المترجم}

[2] وقد ذكرها "ترتليان" "الخوف"، وليس "المخافة" التي كان يذكرها في العبارات السابقة. وهو هنا يتكلم عن حجة أخرى للخطية عند البعض، ألا وهي الخوف (الذي يؤدي إلى الارتباك) مثلما يخطئ أحدٌ وهو يتعلم شيئًا جديدًا بسبب خوفِه المفرط. لكنها حجةٌ فارغةٌ من وجهة نظره، لأن هذا معناه أن من لا يخطئ لا حاجة له بأن يهاب الله. {المترجم}

[3] أي المعمودية.

[4] قبل أن تهطل عليهم أمطار النعمة. {المترجم}

أنفسهم تائبين رغم أنهم يهملون إتمام توبتهم.[1] إن شهواتهم الأخيرة تُلِح عليهم أن يشتهوا شيئًا من أفعالهم السابقة.[2] بالضبط مِثل الفاكهة التي بدأت في التحول للحموضة أو لمرارة الشيخوخة، وهي مع ذلك تتفاخر بجمال بعض أجزائها![3] إن ثقتهم بكل تكبُّرٍ بأنهم سينالون المعمودية، سوف تجلب عليهم كل أنواع التأجيل الباطلة، والارتداد عن التوبة. فشعورهم بالمغفرة الأكيدة لخطاياهم يتسلل أثناء فترة انتظارهم للمعمودية،[4] ويجعل هذه الفترة بالنسبة لهم بمثابة عطلة لعمل الخطية، عِوَض أن تكون فترةً للتعليم. فكم هو متناقضٌ توقُّع مغفرة الخطايا دون إتمامٍ للتوبة! بالضبط مثلما تأخذ سلعة ولا تدفع ثمنها.

التوبة هي الثمن الذي حدده الرب لنوال المغفرة، فقد ارتأى أن يكون رد الدين لأجل التحرر من العقوبة، بهذه المقايضة المكافِئة،[5] والتي هي التوبة. فإن كان الباعة يفحصون العُملة التي يعقدون بها صفقاتهم أولاً، ليروا إذا ما كانت مقطوعة أو ممسوحة أو مزيفة، فنحن أيضًا نؤمن أن الرب يختبر توبتنا أولاً قبل أن يهبنا هذه السلعة الثمينة.

قد يقول أحدٌ: "أعتقد أنه حينما يُغفَر لنا في المعمودية، سيكون التغيير واضحًا علينا. فلنؤجل إذًا توبتنا الحقيقية بشكلٍ مؤقتٍ إلى ما بعد نوال الغفران"! كلَّا على الإطلاق، فلابد أن يظهر علينا التغيير أولاً، لأن بيان العقوبة سيظل موجودًا إلى

---

[1] بالمعمودية.

[2] أي آخر شهوة فعلوها قبل المعمودية.

[3] تشبيه غريب يدل على سعة خيال ترتليان. {المترجم}

[4] أي الفترة الواقعة بين توبة واعتراف الموعوظين، وبين موعد معموديتهم كمؤمنين.

[5] بكل تأكيد, إن قيمة مغفرة الخطايا لا تضاهيها أيَّة توبة، لكن الله يقبلها لأنها أقصى ما يمكن أن يفعله الإنسان تعبيرًا عن اشتياقه للرجوع إلى الله. لكن من الواضح أن "ترتليان" كان يقصد أن التوبة هي القيمة الوحيدة التي ينتظرها الله مِن الإنسان للتعبير عن رغبته في الرجوع إليه. {المترجم}

أن ننال الغفران،[1] وسيظل طالب المغفرة غير مستحقٍ للعِتق، وسيظل الله مهدِدًا بالعقاب, ولن يكون غافرًا.

ولماذا يربط العبد نفسه بسرقات وخيانات الماضي، بعد أن تغير وضعه بنوال الحرية؟ وهل يوجد جنديٌ يُكفِّر عن تقصيراته السابقة بعد أن أُخلي سبيله؟

لابد للخاطئ أن يبكي على نفسه قبل أن ينال الغفران، لأن وقت التوبة يتزامن مع وقت الخطر والخوف.[2] أنا لا أُنكِر أن المنفعة الإلهية – أي محو الخطايا – مضمونة لكل مَن سيدخل جرن المعمودية في جميع الأحوال، لكننا يجب أن نتعب لأجل نعمة الحصول على هذه البركة. فمَن هو الذي سيمنحك المعمودية يا مَن لا تؤمن بالتوبة؟

وإن كان من السهل أن تحصل عليها خلسة، وأن تصل للكاهن الموكَّل بهذه المهمة وتخدعه بتأكيداتك، فتذكَّر أن عين الله على كنزه، ولن يسمح لغير المستحق بأن يتقدم إليه. لقد قال في الحقيقة: "ليس مكتومًا لن يُستعلَن".[3] فاسبِل ستار الظلام إذًا على كل ما يسُرك من أفعال، لأن "الله نورٌ"![4]

لكن البعض يعتقد أن الله مضطرٌ لأن يُغدِق، حتى على غير المستحق، بما قد وعد بأن يعطيه. فيحَوِّلون كرَمه إلى ما يشبه الاستعباد![5] لكنه إن كان يتوجب عليه أن يمنحنا رسم الموت،[6] فهل هذا معناه أنه يفعل ذلك بغير إرادته؟! وهل يوجد

---

[1] أي أنه لابد من التوبة للحصول على الغفران، لأن فاعلية سر التطهير لن تتم إلا بتوبةٍ حقيقيةٍ، وإلَّا ستكون ظاهريةً فقط وغير مؤثرة. {المترجم}

[2] من الدينونة.

[3] (لو12: 2)

[4] (1يو1: 5)

[5] كأن وعد الله بأنه يريد خلاص الجميع، يجعله مضطرًا للوفاء به, كما لو كان مستعبَدًا لوعده. {المترجم}

[6] الذي هو المعمودية (رو6: 3، 4، 8)، (كو2: 12، 20)

يوجد مَن يسمح باستمرار عطية قد أعطاها، بغير إرادته؟! أليس لأجل هذا يفقد الكثيرون هذه المرتبة؟ ألا تُنزع هذه النعمة من كثيرين؟ بالتأكيد هؤلاء هم الذين يتقدمون لنوال هذا الكنز، وبعد أن يقتربوا من الإيمان بتوبتهم، يبنون بيتًا على الرمل سيتحطم إلى أنقاض.

فلا تدَعوا أحدًا يتباهى بتعيينه في صفوف جيش الموعوظين،[1] ويشعر كما لو كان قد حصل بذلك على رخصةٍ فوريةٍ للخطية. فبمجرد أن تعرِف الرب،[2] يجدر بِك أن تهابه. وبمجرد أن تنظر إليه، يجب عليك أن تحترمه.

فما هو الذي غيَّرَته معرفتك له، بينما أنت ما زلت تمارس عاداتك السابقة التي كنت تفعلها وأنت لا تعرفه؟ ما الذي يميزك عن خادم الرب الذي كَمُل؟ هل هناك مسيحٌ للمعتمدين وآخر للموعوظين؟ هل لهم رجاءٌ آخر أو مكافأةٌ أخرى؟ هل لهم مخاوفٌ أُخرى من الدينونة؟ هل لهم احتياجاتٌ أخرى إلى التوبة؟

إنَّ غسل المعمودية هو ختم الإيمان، وهذا الإيمان قد بدأ وأوصى بإيمان التوبة. نحن لا نعتمد لكي نكُف عن الخطية، بل لأننا قد أقلعنا عنها بالفعل منذ أن اغتسلَت قلوبنا.

إنَّ أول معموديةٍ للموعوظ هي "المخافة الكاملة"، فمنذ ذلك الوقت وإلى أن تُدرِك الرب، لابد أن يكون إيمانك سليم، ولابد أن يحتضن ضميرك التوبة من أول مرةٍ.

وبالعكس، إن كنا نُقلِع فقط عن الخطأ بعد المعمودية، فمِن الضروري, وليس بمحض إرادتنا, أن نتظاهر بالبراءة! فمَن هو الأكثر جودةً إذًا؟ أهو غير المُصرَّح له بعمل الشر، أم الذي يُحزِنه الشر؟! الذي أُمر، أم الذي مسرَّته في عدم اقتراف الخطأ؟!

---

[1] وهو اللقب الذي كان يُطلَق على من يريد أن يصير مسيحيًا قبل المعمودية. {المترجم}

[2] (أر31: 34)، (عب8: 11)

فإن كان الذين سلَّموا أنفسهم للرب لا يمتنعون عن الخطية إلا بعد المعمودية، فدعونا إذًا لا نمتنع عن السرقة إلا بسبب قسوة القيود! ولا نمنع أعيننا عن اشتهاء الزنا إلا عندما يجذبنا المسئولون عنا!. إن قَبِل أحدٌ هذا الفكر، فلست أدري إن كان سيشعر بالسعادة لهروبه منه، أم سيحزن بالأكثر لأنه أقلع عنه؟!

فمِن اللائق إذًا أن يرغب الموعوظون في المعمودية، لكن ليس بعجلةٍ. لأن مَن يرغب فيها يُكرمها، لكن مَن يقبلها بعجلةٍ يزدري بها. الأول يبدو عليه التواضع، والثاني الغرور. الأول سوف يُفرِح معموديته، والثاني سوف يُهمِلها. الأول يشتهي أن يستحقها، لكن الثاني ينتظر أن يحصل عليها ليسترد دَينه. الأول ينالها، والثاني يغتصبها لنفسه.

فلِمَن ستَحكُم[1] بالاستحقاق إذًا, أليس للذي قد تغَيَّر بالأكثر؟ ومَن هو الذي تغير بالأكثر, إلا مَن هو أكثر خجلاً، والذي قد أتم واجب التوبة الحقيقية؟ فإنه خاف أن يستمر في الخطية خشية ألَّا يستحق قبول المعمودية.

أمَّا بالنسبة لِمَن يقبل المعمودية بعجلةٍ، فبقدر ما يتوقع الحصول عليها بثقةٍ كما لو كانت حقه، وبقدر ما يشعر بضمان الحصول عليها بكل تأكيدٍ، بقدر ما هو لا يشعر بالمخافة. لذلك, فهو لن يُكمل توبته، لأنه يفتقد العامل المساعد على التوبة، ألا وهو المخافة. إن استعجال الحصول عليها هو نوعٌ من عدم الاحترام، فإنه ينفخ الطالب ويستخِف بالمعطِي. لذلك, فهي تخدع في بعض الأحيان, لأنها تتوقع النعمة لنفسها قبل أن تستحقها، فيتضايق الذي يُعِد لها دائمًا.[2]

---

[1] أنت.

[2] أي الله.

الفصل السابع

التوبة في حالة مَن أخطأ بعد المعمودية.

أيها المسيح الرب: "ليتك تبارك ما يتعلمه ويسمعه عبيدك الموعوظون عن التوبة كما ينبغي، كيلا يخطئون". أو بمعنى آخر, "ليتهم لا يعرفون التوبة، ولا يحتاجون إليها فيما بعد".[1]

إنه أمرٌ مزعجٌ أن نهتم بالرجاء في التوبة الثانية – وليتك تعتبر أنها ستكون الأخيرة[2]– لئلا بحديثنا عن وجود شفاءٍ بتوبةٍ محفوظةٍ لوقت الحاجة، نبدو وكأننا نشير إلى وجود مجالٍ للخطأ مرة أخرى.

حاشا لأحدٍ أن يفهم أن هذا هو غرضنا، وكأننا نقول إنه مادامت هناك فرصة للتوبة, فهناك فرصة الآن لنخطئ أيضًا. كأن الرحمة الكنسية الزائدة تأذن للإنسان بالتهور. لا تجعلوا أحدًا يقلل من صلاحه لكون الرب أكثر صلاحًا، فيكرر خطيئته مادام الرب سيغفرها له. وبالعكس، تأكدوا أنه سوف ينجو إن لم يخطئ.

لقد نجونا مرةً، فلا تدَعونا نورط أنفسنا في المخاطر ثانيةً, حتى لو بدت لنا إمكانية النجاة مرةً أخرى. إن الناس عامةً بعد نجاتهم من غرق السفينة، يقررون مفارقة السفينة والبحر من ذلك الوقت فصاعدًا، ويمجدون النعمة التي أنعم بها الله عليهم – أي نجاتهم – كُلما تذَكَّروا الخطر.

---

[1] وهو لا يقصد ألَّا يحيوا حياة التوبة، بل يتمنى ألَّا يعودوا يخطئون ثانية، فيضطرون لتقديم مشاعر حزنهم عن خطيئتهم مرةً أخرى, ويقضون عمرهم دون الشعور بفرحة الحياة مع المسيح. {المترجم}

[2] يحاول "ترتليان" أن يُحذِّر التائب المعتمِد من تكرار الخطأ لئلا يقع في التهاون، مما جعله يُحذِّر بأن الله قد يقبل التوبة عن الخطية بعد المعمودية إذا ما حدثت مرة واحدة، لكن إن تكررت، فسيكون هناك خطرٌ على خلاص الإنسان، لأن الكنيسة في بداية المسيحية كانت حازمةً مع مَن يزدري بالخطية، وهو ما حدث مع "حنانيا وسفيرة". وفي الحقيقة، إن باب التوبة مفتوحٌ دائمًا، لكن ليس معنى هذا أن يتهاون الإنسان, لئلا يطفئ الروح. لذلك يحذِّر" ترتليان" من التهاون، وسيحذِّر لاحقًا من اليأس من إمكانية التوبة لمن يريد التوبة الحقيقية. {المترجم}

إنني أمتدح خوفهم، وأُحب تبجيلهم. إنهم لا يريدون أن يُثقِلوا ثانية على الرحمة الإلهية، ويخشون أن يظهروا كمَن يدوسون على النعمة التي حصلوا عليها. إنهم يخشون – بقلقٍ جيدٍ على كل حال – أن يجرّبوا ثانية ما قد تعلَّموا أن يخافوا منه قبل ذلك. إن ما يُثبت مخافتهم هو أنهم يضعون حدودًا للمجازفة، وهكذا أيضًا مخافة الإنسان لله ستكون إكرامًا له.

ومع ذلك، فإن خصمنا العنيد لا يكُف عن خبثه، بل إنه في الحقيقة يكون أكثر شراسة حينما يشعر بأن الإنسان قد تحرر تمامًا من مخالبه، ويشتعل شراسةً بسرعةٍ حينما يُخمِد أحدٌ نيرانه.

مِن الطبيعي أن يحزن ويئن بسبب حقيقة أن أعمالاً كثيرةً مميتةً في الإنسان قد انتهت، وآثار كثيرة لعقوباته السابقة قد مُحيت بنوال الغفران. إنه يَحزن لأن ذاك الخاطئ الذي أصبح الآن خادمًا للمسيح, سوف يدينه هو وملائكته.[1] لذلك، فإنه يراقبه ويهاجمه ويحاصره, على أمل أنه قد يستطيع بطريقة ما أن يلفت انتباهه إلى شهوة الجسد، أو يوقِع عقله في شباك إغراءات العالم، أو يُفسد إيمانه بالخوف من قوة أرضية، أو يجعله ينحرف عن طريق الحق بالتقاليد الفاسدة. إنه لن يعجز عن وضع العثرات والتجارب.

لكن الله يدرك سمومه هذه. فبالرغم من أن باب الغفران قد أُغلِق وأُوصِد بقضيب المعمودية، إلا أنه مازال يَسمح ببقائه مفتوحًا بشكلٍ ما، فلقد أقام التوبة الثانية في الدهليز كي تسمح بفتح الباب لمَن يطرقه في المرة الثانية، لكنها قد لا تفتح ثانية إذا ما كانت المرة السابقة قد ضاعت هباءً.

ألم تكن هذه المرة كافية لك؟ إنك الآن تطلب ما لا تستحقه، لأنك فقدت ما قد نلته. فإن كان تسامح الله يقدم لك وسيلة استرجاعٍ لِما قد فقدته، فكن شاكرًا على النعمة التي قد تجددت، ولا تكرر الأمر ثانيةً. فإنه مثلما يكون فقدان الشيء أسوأ

[1] (1كو6: 3)

من عدم الحصول عليه من الأساس، هكذا استرجاع الشيء سيكون أصعب بكثيرٍ من الحصول عليه.[1]

ومع ذلك، إذا عرَّض أحدٌ نفسه لمديونية التوبة الثانية، فلا يجب أن تصغر روحه وتهلك سريعًا بسبب اليأس. فإن اعتبرنا أن الخطأ ثانيةً هو شيءٌ متعب بكل المقاييس، فدعونا نعتبر أن التوبة الثانية ليست بالأمر العسير. إن كان أمرًا متعِبًا أن تُعرِّض نفسك للخطر ثانيةً، إلا أنه ليس عسيرًا أن تتحرر ثانيةً. لا تدَعوا أحدًا يخجل، لأن المرض المتكرر يحتاج لتكرار الدواء.

إنك بعدم رفضك لِما منحك الرب، تُظهر له عرفانك بالجميل. فإن أسأت إليه، فأنت مازلت تستطيع أن تتصالح معه. يمكنك أن ترضيه، وهو سوف يقبل منك.

الفصل الثامن

أمثلة من الكتاب المقدس تؤكد أن الرب يريد المغفرة.

فإن كنت تشُك، فاقرأ "ما يقوله الروح للكنائس".[2] لقد نَسب لملاك كنيسة "أفسس" ترك المحبة،[3] وبكَّت ملاك كنيسة "ثياتيرا" على الزنا وأكل ما ذُبح للأوثان،[4] واتهم ملاك كنيسة "ساردس" بعدم كمال أعماله،[5] ووبخ ملاك كنيسة "برغامس" على التمسك بالتعاليم الخاطئة،[6] وعنَّف ملاك كنيسة "لاودكية" لاتكاله على الغِنى،[7]

---

[1] أي يجب أن يقدِّر الإنسان قيمة ما يفعله الله معه حينما يخطئ ثانية ويتوب. {المترجم}

[2] (رؤ2 :7، 11، 17، 29)، (رؤ3: 6، 13، 21)

[3] (رؤ2: 4)

[4] (رؤ2: 20)

[5] (رؤ3: 2)

[6] (رؤ2: 14، 15)

[7] (رؤ3: 17)

وأعطاهم كل التحذيرات العامة لأجل التوبة – تحت التهديد الفعلي.

لكنه لم يكن لينطق بالتهديدات لغير التائب لو لم يكن غافرًا للتائب. فلو لم يكن قد أظهر رحمته في موضعٍ آخرٍ, لأصبح الأمر شائكًا. ألم يقل: "هل يسقطون ولا يقومون، أو يرتد أحد ولا يرجع"؟[1] فإنه بالتأكيد "يريد رحمة لا ذبيحة".[2]

السماء والملائكة الموجودون فيها يفرحون بتوبة إنسانٍ.[3] ابتهج أيها الإنسان، وأنظر أي موضعٍ هذا الذي يفرح برجوعك! فما معنى هذه الكلمات التي ذكرها الرب في أمثاله بالنسبة لنا؟ أليس مَثل المرأة التي أضاعت درهمًا، وبحثت عنه ووجدته، ودَعت صديقاتها ليشاركنها فرحتها، هو بالحقيقة مثال لرجوع الخاطئ؟[4]

وللضالين كذلك، لم يكن القطيع أعز من شاةٍ صغيرةٍ للراعي. هذه الواحدة قد بحث عنها باجتهاد، واشتاق إليها أكثر من الباقين، وفي النهاية وُجِدَت وحُمِلَت ثانية على ذراع الراعي نفسه، لأنها عانت كثيرًا بسبب الضلال.[5]

ولن أمُر مرور الكرام على هذا الأب الحنون الذي دَعا ابنه الضال للبيت، واستقبله تائبًا عن طيب خاطرٍ بعد عوزه، وذبح أفضل عجلٍ مسمنٍ لديه، وأظهر فرحته بعمل وليمةٍ.[6] ولِمَا لا؟! فلقد وَجد الابن الذي فقده، وشعر ثانيةً بأنه أفضل مخلوق عنده.

فمَن هو هذا الأب يا تُرى؟ إنه الرب بكل تأكيد. فلا يوجد أبٌ حقيقيٌ أكثر منه،[7] وليس هناك مَن هو أغنى منه في الحب الأبوي. إنه سوف يستقبلك كابنه,

---

[1] (أر8: 4)

[2] (هو6: 6)، (مت9: 13)

[3] (لو15: 7، 10)

[4] (لو15: 8 – 10)

[5] (لو15: 3 – 7)

[6] (لو15: 11 –32)

[7] (مت23: 9) وجملة "أب حقيقي" تُذكر في القداس الغريغوري. {المترجم}

ويرُدك حتى لو بددت ما قد أخذته منه, وحتى لو رجعت عريانًا وقارنت بين جوعك وبين طعام أُجراء أبيك الكثيرين – إن تركت الخنازير والقطيع القذر– وطلبت طعام أبيك ثانيةً بعدما أحزنته، وقلت: "أخطأت... ولست مستحقًا بعد أن أُدعى لك ابنًا". إن مجرد رجوعك سوف يُفرحه أكثر من فرحته بوعي الباقين، لكن فقط إن تُبت من كل قلبك.

إن الاعتراف بالخطايا يخفف الأحمال، والتستر عليها يزيدها. فإن الرغبة في الرضى ستقودك للاعتراف، وأمَّا التمرُّد فسيقودك إلى الإخفاء.

الفصل التاسع

بخصوص المظاهر الخارجية التي ينبغي أن ترافق هذه التوبة الثانية.

إذًا، كُلما زادت مشقات اختبار هذه التوبة الثانية – والوحيدة المتبقية[1]– كُلما ضاق محيط عملها. فإنها لن تكون توبةً ضميريةً فقط، بل ستتم بعملٍ ظاهريٍ أيضًا، وهذا العمل يُعَبَّر عنه في الغالب بكلمة (ἐξομολόγησις)[2] في اليونانية، والذي فيه نعترف أمام الرب بخطايانا، ليس لأنه كان يجهلها، بل لأنه مثلما يحدث الرضا نتيجة الاعتراف، هكذا تولَد التوبة بالاعتراف، ويهدأ الرب بالاعتراف. لذا، فالاعتراف هو ممارسةٌ تتم لأجل انطراح الإنسان وتواضعه، وتَفرض عليه سلوكًا معيَّنًا طلبًا للرحمة.

أمَّا بخصوص الملابس والطعام، فإن الاعتراف يوصي التائب بأن يرقد في المسوح والرماد، وأن يغطي جسده بثوب الحِداد، ويخفض من روحه بالأحزان،

---

[1] كما سبق وأشرنا تأكيد "ترتليان" لمَن يتهاون بإرادته، ولمَن يتلاعب بالكنيسة من الوثنيين الذين يطلبون المعمودية، أن الكنيسة سوف تعطي فرصةً ثانيةً لهم كي يصلحون من أنفسهم، لكنها لن تتهاون معهم مرةً أخرى. {المترجم}

[2] (Exomologesis) أي الاعتراف التام العلني.

ويستبدل خطاياه التي اقترفها، بعلاجٍ شديدٍ. بل وأيضًا يوصيه بألَّا يأكل ويشرب إلا ما هو بسيطٌ – ليس لأجل معدته بالطبع، بل لأجل روحه.[1]

فإنك بتغذيتك لصلاتك بالصوم، وبأنينك ونوحك وصراخك إلى الرب إلهك، وبانحنائك عند أقدام الكهنة وجثوك أمام أحباء الله، توجِّه كل الأخوة أن يكونوا سفراءً[2] يحملون توسُّلات استرحامك إلى الله.

كل هذه الأعمال المصاحِبة للاعتراف تتم لأجل كمال التوبة. إنها تكرِم الله بالخوف من التعرض للخطر، وتقف ضد الخاطئ. إنها تقاوِم غضب الله، وتشطب اسم – ولن أقول تلغي – العقاب الأبدي بالإماتة المؤقتة. لذلك، فإنها فيما هي تذل الإنسان، فإنها في الحقيقة ترفعه. وفيما هي تغطيه بالرماد، فإنها تعيده أكثر نظافة. وحينما تَتهم، فإنها تصفح. وبينما هي تدين، فإنها تعطي الحِل.

---

[1] كان هذا هو المتبع، وبالأخص في كنيسة روما، حيث كانت قوانين التوبة شديدةً بهذا الشكل، وكانت تتم علانيةً أمام الكل، ثم بدأت تتغير بسبب الفضائح التي كانت تلاحق المعترفين. ففي حوالي سنة 250م تقرر أن يكون الاعتراف على يد كاهنٍ وقور تم تعيينه من قِبل الكنيسة لفحص التائبين بإرادتهم تبعًا للقوانين الكنسية، وكان له سلطان حلهم وربطهم بموجب قوانين توبة تُفرَض عليهم. ثم حوالي سنة 400م أُلغي هذا النظام في الشرق بسبب صعوبته على الناس، تبعًا لتعاليم ق. يوحنا ذهبي الفم، والذي أكد كثيرًا استعداد الله الدائم للمغفرة كما جاء في (مت 6:6)، وأصبح الاعتراف اختياري وسِرّي، والحِل يكون بقول الكاهن للمعترف "الله يحاللِك" واستمر هذا الوضع في الكنائس الشرقية حتى الآن. أما في الغرب فاستمر هكذا إلى أن عُقد مجمع Lateran سنة 1215م، حيث وُضعت قوانين وأنظمة فاسدة للاعتراف ـ وهي العصور المظلمة للغرب ـ تَعتبر الخطية أمرًا سهلاً، ويمكن أن تُغفر بتعويضات تكفيرية، كما صار الحِل بقول الكاهن "أنا أُحاللك"، وكانت التعويضات في بعض الأحيان مخيفة، لأنهم رأوا أن الخوف من العقاب هو ما يدفع إلى التوبة. أما في الشرق، فالتعاليم مختلفة تمامًا، ومستمَدة من تعاليم المسيح والرسل التي تؤكد أن الكفارة عن الخطايا قد قدمها السيد المسيح بنفسه مرةً واحدة، وأن سبب التوبة ليس هو الخوف من العقاب، بل الشعور بأن الخطية تُحزن قلب الله، وأن الإنسان لابد أن يكره الخطية من كل قلبه. {هذا التعليق ذكره الناشرون في الترجمة الإنجليزية}.

[2] (2كو 5: 20)

صدِّقني، كُلما قلَّت شفقتك على نفسك، كُلما أشفق الله عليك.

الفصل العاشر

تهرُّب الناس من التوبة الثانية ومن الاعتراف، وعدم منطقية هذا التهرب.

معظم الناس الآن إما يتهربون من هذا العمل لأنه يكشفهم أمام الناس، أو يؤجلونه من يومٍ إلى يومٍ. أعتقد أنهم يهتمون بالخجل أكثر من اهتمامهم بالخلاص، بالضبط مثل مَن يصاب بمرضٍ ما في الأماكن الأكثر خصوصية في الجسم، ويرفض الكشف عنها أمام الأطباء، فيهلك بسبب خجله.

إن إرضاء الرب المستاء هو أمرٌ لا يحتمله خجلهم بكل تأكيدٍ! وخجلهم لن يحتمل العودة إلى الخلاص المفقود كذلك! فهل أنت حقًا تُكرم خجلك يا من تحتمل جرح جبينك بالخطية[1] ولست تحتمل جرح جبينك بالاستغفار؟![2]

أنا شخصيًا لا أعطي مكانًا للخجل حينما أربح بخسارته، فإنه ينبهني بنفسه بطريقة ما قائلاً: "لا تهتم بي، مِن الأفضل أن أهلك لأجلك من أن تهلك لأجلي".

على كل حالٍ، ليس هناك خطورة في الاعتراف – إن وُجدَت – إلا إذا كان الهدف منه هو الاستهزاء بك من قِبل أناس شتَّامين، فينهض أحدٌ لأجل تدمير أخيه، ويقف فوق مَن هو منطرح!

لكن لماذا تعتبر الإخوة[3] والعبيد شركاءنا كأنهم أشخاصٌ غيرك، مع أن لهم نفس الرجاء والخوف والفرح والحزن والمعاناة، لأننا جميعًا لنا روح واحد لرب واحد، وأب واحد؟ ولماذا تهرب ممن يشاركونك مصيبتك، وكأنهم سيستهزئون منك

[1] تشبيه لمن يخجل من الخطية كمَن يخجل من جرح في وجهه. {المترجم}

[2] قد يكون قصده جرح الجبين من كثرة الميطانيات. {المترجم}

[3] من الواضح أن الاعتراف كان يتم في البداية أمام مجموعة من الكهنة والخدام بشكل علني وليس على كاهنٍ واحدٍ، لكن الأمور تغيرت بعد ذلك كما أشرنا في تعليق سابق. {المترجم}

بسخرية؟ إن الجسد لا يمكنه أن يفرح حينما تكون هناك مشكلةٍ ما عند أي عضوٍ،[1] فإنه لابد وأن يشارِك هذا العضو أحزانه، ويشترك معه في الاجتهاد من أجل العلاج، فحيثما اجتمع اثنان وُجِد المسيح،[2] والكنيسة هي المسيح.[3]

إذًا، فأنت حينما تطرح نفسك عند رُكب الإخوة، فإنك تتعامل مع المسيح، وتترجاه هو. وبنفس الوضع حينما يبكون عليك، يكون المسيح هو مَن يتألم ويطلب لك الرحمة من الآب،[4] فإن ما يطلبه الابن يكون من السهل الحصول عليه.[5]

لكن، ما هي المكافأة التي يَعِدنا بها الخجل حينما نُخفي أخطاءنا؟! بديهيًا، هل إن أخفينا شيئًا ما عن عِلم الناس، سيمكننا أن نخفيه أيضًا عن الله ؟! هل يتساوى حكم الناس مع معرفة الله بنفس المقدار؟! هل من الأفضل أن نُدان في السِر، عن أن ننال الحِل في العلن؟!

لكنك تقول إنه أمرٌ متعبٌ أن نذهب للاعتراف. نعم، لأن الشر يؤدي إلى الشقاء، لكنك حينما تضع التوبة يبطل التعب، لأنه يتحول إلى منفعة. إنه أمرٌ متعِبٌ أن تُجرَح وتُكوَى وتتعذب بطعم مسحوق الدواء اللاذع، لكنك مع ذلك تلتمس العذر للأشياء التي تعالِج بأساليب كريهة من أجل الشفاء، وتحتمل التي تُحدِث جرحًا مؤقتًا لأجل المنفعة المستقبلية.

---

[1] (اكو 12: 26)

[2] (مت 18: 20)

[3] لأنها جسده.

[4] (1يو2:1)

[5] (يو 11: 41،42)

الفصل الحادي عشر

انتقادات أخرى للاعتراف.

إلى جانب الخجل الذي يهتمون به كثيرًا، قد يقول البعض: "ماذا لو خاف الناس كذلك من أتعاب الجسد، سواء من عدم الاغتسال، أو من لبس ثياب الحداد، أو البعد عن الفرح، أو خافوا من ضرورة قضاء وقتهم في احتمال خشونة المسوح، وفظاعة الرماد، والوجه الغائر بسبب الصوم؟".

قولوا لي, هل يليق إذًا أن نتضرع إلى الله لأجل خطايانا ونحن لابسون القرمز والأرجوان؟! فلتُحضِر إذًا بسرعةٍ المشط لفرق الشعر، والمسحوق لتلميع الأسنان، وأحضِر أيَّة أداةٍ معدنيةٍ أو نحاسيةٍ بها أفرع لتنظيف الأظافر. أحضر أي لمعانٍ كاذبٍ، وأي لونٍ أحمرٍ مصطنَع تجده، وضَعه بعناية على شفتيه[1] وخديه. بل دعه يبحث بالأكثر عن الحمامات ذات الحرارة اللطيفة في الحدائق أو الشواطئ المنعزلة. دعه يُزيد مصاريفه، ويبحث باهتمامٍ عن الطيور النادرة السمينة لذيذة الطعم. دعه يُصفِّي خمره العتيق، وحينما يسأله أحدٌ قائلاً: "لمَن تُبذِّر كل هذا؟" فيُجِب قائلاً: "لقد أخطأت في حق الرب، وأنا مُعرَّض للهلاك الأبدي، ولذلك أنا الآن أنحني وأُتلف نفسي وأُهذبها كي أصالحها على الله الذي أحزنته بخطيتي"!

لماذا لا يشعر هؤلاء الذين يطوفون لجمع الأصوات لأجل الحصول على المناصب المدنية، بأنه أمرٌ مهينٌ ومتعبٌ أن يجاهدوا بمضايقاتٍ نفسيةٍ وجسديةٍ لأجل الحصول على رغباتهم. ليس فقط المضايقات، بل وأيضًا كل أنواع الاستهزاء. فأيَّة حقارةٍ لا تصيب ثيابهم؟ وأي منزلٍ لم يقلقوه بزياراتهم، سواء في أوقات مبكرة أو متأخرة؟ إنهم ينحنون أينما قابلوا أي شخصيةٍ مهمةٍ. هم لا يذهبون إلى الولائم ولا يشتركون في الملاهي، لكن بإرادتهم يبتعدون عن سعادة الحرية والابتهاج، وكل هذا

---

[1] ضمير الغائب هنا عائد على مَن يدَّعي الخوف من أتعاب الجسد اللازمة للتوبة. {المترجم}

لأجل الحصول على سعادةٍ زائلةٍ لمدة عامٍ واحد![1]

فهل سنتردد نحن عندما تكون أبديتنا في خطر، ولا نحتمل ما ينصبه أمامنا مَن ينافسنا[2] على منصب الولاية[3] أو القضاء؟[4] وهل سنتلكأ في تقديم تأديبنا لذواتنا لأجل الرب عن طريق الطعام, وعن طريق الملبس الذي يرتديه الوثنيون لعدم شعورهم بالحزن على أحد؟

إن هؤلاء هم الذين قال عنهم الكتاب: "ويلٌ للجاذبين الإثم بحبال البُطل والخطية، كأنه بربط العجلة".[5]

الفصل الثاني عشر

تأملات أخرى للحث على الاعتراف.

فإن كنت تهرب من الاعتراف، فاجعل قلبك يتأمل في جهنم، وكيف أن الاعتراف سيُطفئها لك. تخيل أولاً حجم العقاب، فلن تتردد في أن تختار العلاج.

ما الذي يمكن أن نتخيله عن مكان النار الأبدية؟ إنها تُخرج من فوهتها الصغيرة لفحاتٌ من اللهب تبيد المدن المجاورة لها، وحتى إن تبقت إحدى المدن، فإن مصيرها سيكون كذلك يومًا ما.[6] فعند طلقات ولادة جنينها الناري، تبدأ أعالي الجبال في الانشقاق، ومتى بدأ الانشقاق والانهيار، فلن ينتهي أبدًا – وهو ما يؤكد

---

[1] يريد "ترتليان" أن يشبّه أبديتنا التي نسعى للحصول عيها، بهذه المناصب التي يسعى إليها مَن يبتغيها، ولا يبالي بالآلام والأتعاب لأجل الحصول عليها. {المترجم}

[2] وهو يقصد الشيطان الذي يريدنا أن نفقد أبديتنا، وينافسنا على التحكُّم في دفة حياتنا. {المترجم}

[3] (Consulship) وهو أعلى منصب للحكم في الإمبراطورية الرومانية، حيث كان يمنح للوالي الجديد صلاحيات الملِك لمدة عامٍ واحدٍ. {المترجم}

[4] (Praetorship) وهو منصب القاضي في الإمبراطورية الرومانية. {المترجم}

[5] (أش 5: 18)

[6] تشبيه لجهنم بالبركان الثائر الذي يدمر كل ما حوله. {المترجم}

لنا أن الحكم سيكون أبدي. أليست هذه العقوبات الموسمية التي تقع على الجبال هي أمثلة للدينونة التي تهدِد غير التائب؟ ألا ترى أن مثل هذا الشرر لا يمثِّل إلا القليل من قذائفٍ وسهامٍ خارجة من مركز نارٍ هائلةٍ لا يمكن تقديرها؟

فالآن، بما أنك تعلم أنه بعد متاريس المعمودية، مازال يوجد لك عونٌ آخرٌ محفوظٌ لأجلك ضد الجحيم – ألا وهو الاعتراف– فلماذا إذًا تتخلى عن خلاص نفسك؟ ولماذا تتوانى في الحصول على ما تعلم أنه سيفيدك؟ فحتى الحيوانات البكماء غير العاقلة تعرف وقت احتياجها للأدوية التي حددها لها الله. فالآيل المطعون بسهمٍ، يعرف أنه لكي يُخرج الحديد من جِسمه عنوةً, ويحتمل آلامه التي لا تطاق لفترةٍ طويلةٍ، يجب عليه أن يعالج نفسه بعشب "الديتان".[1] والسنونة إذا تسببت في إصابة فراخها بالعمى، تعرف كيف تجعلهم يرون مرة أخرى بواسطة عشب "السنونو".[2]

فهل يغض الخاطئ – الذي يعرف أن الرب قد أقام الاعتراف لأجل تجديده – الطرف عن ما قد أعاد ملك بابل إلى مملكته؟[3] لقد قدم توبته للرب لمدة طويلة، وبلغت مدة اعترافه سبع سنوات بائسة، وكانت أظافره تطول مثل الطيور، وشعره أشعث كشعر الأسد. إنه أمرٌ يفوق العقل أن الذي كانت الناس ترتعد منه، قد عاد إلى الله. لكن ما فعله ملك مصر – الذي بعد أن طارد شعب الله المتضايق، واستمر في إنكاره لإلههم، واندفع للقائهم – كان على النقيض. فبعد ضرباتٍ تحذيريةٍ كثيرةٍ، هلك في البحر المشقوق– الذي كان مصرَّح فقط لشعب الله أن يعبره – بعد أن ارتدت الأمواج وانطوت،[4] لأنه طرح عنه التوبة، ووصيفتها "الاعتراف".

والآن، ما هو الداعي لأن أضيف وأكتب أكثر مِما يمليه عليَّ ضميري، عن

---

[1] نوع من الأعشاب التي تستخدم للعلاج، وهو مازال موجودًا حاليًا في غرب أمريكا. {المترجم}

[2] من الواضح أنه كان نوعًا من الأعشاب العلاجية الموجودة في ذاك الزمان.

[3] (دا 4: 25)

[4] (خر 14: 15–31)

لوحي الخشب الطافيين[1] لأجل خلاص الإنسان الغارق؟ فأنا الخاطئ بكافة الشرور، والذي لم يولد إلا لأجل التوبة، لا يمكنني أن أكُف عَّما لم يغفله أيضًا رأس وأصل جنس البشر، وأصل ذنوب البشرية، "آدم", الذي عاد إلى فردوسه بالاعتراف.[2]

[1] أي التوبة والاعتراف اللذان هما طوقا النجاة للخاطئ. {المترجم}

[2] وهو بالتأكيد ما فعله أبونا "آدم" من ندم وتوبة واعتراف طوال حياته على الأرض. {المترجم}

الصـلاة

للعلاَّمة ترتليان

مُقدِّمة

إنَّ هذا النَص الذي كُتب بين عاميّ 198م و200م يُعتبر أقدم نَص كُتِب عن تحليل الصلاة الربانية، كما أنه يناقش بعض العادات السيئة التي كانت تمارَس من بعض المؤمنين قبل أو أثناء أو بعد الصلاة، وكيفية معالجتها، والرد الكتابي على مَن يتمسك بها. ويشتمل النَص على العديد من التقاليد المسيحية الأولى، والتي تُعتبر مرجعًا لِما تمارسه الكنيسة الآن من طقوس خاصة بصلوات السواعي والميطانيات والتناول أيام الأصوام وغير ذلك، مثل:

1- أن كل الأمور الكنسية الحالية مستَلَمة من التقليد الآبائي منذ بداية المسيحية, كصلوات السواعي، والامتناع عن الميطانيات أيام الآحاد، والقُبلة المقدسة بين المُصلِّين، والامتناع عنها في الجمعة العظيمة (حاليًا من ليلة الأربعاء إلى قداس العيد). كما أنه يؤكد إمكانية التناول في أيام الصيام، ويرى أنه لا يكسر الصوم، بل يجعله أكثر روحانيةً (وحاليًا توجد الكثير من الآراء حول هذا الموضوع).
2- أن الميعاد المناسب لعمل الميطانيات يكون وقت صلاة باكر.
3- استخدام المزامير المرتَّلة في الصلوات، وخاصة في التسبحة، مما يبيِّن قِدم تسبحة نصف الليل في الكنيسة، وبالأخص الهُوس الرابع.
4- الالتزام بإتمام قانون الصلوات المحفوظة إلى جانب الارتجالية.
5- الاهتمام بالروحانيات في كل الطقوس.
6- مراعاة الخشوع في الصلاة بالوقوف وبسط اليدين والاحتشام والانسحاق.
7- التزام العذارى المُكرَّسات لله بارتداء ثيابٍ خاصةٍ تتميز بالحشمة, ووجود غطاءٍ للشعر.
8- الفهم السليم لحقيقة المعجزة في المسيحية.

في هذا النص يؤكد لنا العلاّمة "ترتليان" أن:

1- عبارة "لتكن مشيئتك. كما في السماء كذلك على الأرض." يمكن أن تُفهَم بمعنى آخر.

"إننا نصلي لأجل أن تكون مشيئته في الكل، كي يكون جسدنا وروحنا هما الأرض والسماء." (الفصل الرابع)

2- الكرازة في العصور الأولى للمسيحية كانت قوية جدًا.

"نحن الآن مدفوعون بقوةٍ للكرازة والعمل والاحتمال، وحتى إلى الموت." (الفصل الرابع)

3- أُذُنا الرب قريبتان جدًا من أفواهنا.

"إننا لسنا بعيدين عن أُذُني الرب، بنفس مقدار بُعدنا عن وصاياه." (الفصل العاشر)

4- الغضب يُعيق الصلاة.

"لماذا تفقد صلاتك بتمسكك بالغضب؟" (الفصل الحادي عشر)

5- الصلاة بصوتٍ هادئٍ تكون أكثر قبولاً وأكثر روحانيةً.

"وبالمثل نبرات أصواتنا تجب أن تنخفض، فلو كان سماع صلواتنا يكون بضجيجنا، فكَم تجب أن يكون حجم قصبتنا الهوائية؟! لكن الله سامعٌ، ليس للصوت، بل للقلب." (الفصل السابع عشر)

6- التمسُّك بتعاليم مَن سبقونا, وعدم الانصياع وراء التطور بدون تروٍ وفحصٍ, هو أمرٌ ضروري.

"لكن لا ينبغي أن يظن أي فردٍ أن النظام الذي سار عليه سَلَفُه يجب أن يسقط." (الفصل الثاني والعشرون)

7- صلوات السواعي هي الأكثر تقديسًا في الكتاب المقدس.

"إن الالتزام بالصلوات الظاهرة في المواعيد المعينة - أي الساعات العامة التي ترمز لفترات النهار، وهي الثالثة والسادسة والتاسعة - لن يكون بلا نفعٍ، هذه التي قد نجد أنها أكثر تقديسًا في الكتاب المقدس من باقي الأوقات." (الفصل الخامس والعشرون)

8- التسبيح بالمزامير هو ذبيحةٌ مختارةٌ نقدمها لله.

"أمَّا المجتهدون أكثر في الصلاة, فقد اعتادوا على إضافة الـ "هلليلويا" لصلواتهم, والتي في نهايتها يردُ المجتمعون قائلين: "هلليلويا". وبالطبع كل الاجتماعات تكون رائعةً، لأنها بتمجيدها وتكريمها لله, تهدف بالإجماع إلى تقديم صلاةٍ مزخرفةٍ كذبيحةٍ مختارةٍ لله." (الفصل السابع والعشرون)

المترجم

الفصل الأول

مُقدِّمة عامة

ربنا يسوع المسيح, الذي هو كلمة الله، وعقل الله، والذي يعمل بروح الله – فهو نُطق الله العاقل، وعقل الله الناطق– قد عيَّن لأجلنا تلاميذ العهد الجديد، ووَضع لأجلنا شكلاً جديدًا للصلاة. لِذا, كان من الضروري أن توضع الخمر الجديدة في زقاقٍ جديدةٍ، وأن تُخاط الرقعة الجديدة على ثوبٍ جديدٍ.[1] بل وأن يتغير تمامًا كل ما كان في الأيام الماضية (مِثل الختان)، أو يَكمُل (مِثل باقي الناموس)، أو يتحقق (مِثل النبوات)، أو يتم على أكمل وجه (مِثل الإيمان نفسه).

إنَّ نعمة الله الجديدة قد غيَّرَت كل شيءٍ من الحالة الجسدية إلى الروحية, بقدوم البشارة الماحية لكل النظام القديم، والتي بها صُدِّق على أن ربنا يسوع المسيح هو كلمة الله، وعقل الله، والمؤيَّد بروح الله. الكلمة (التي بها علَّم)، والعقل (أي الحكمة التي أتى بها)، والروح (الذي به كان مُقتدرًا).

لذا، فالصلاة التي وضعها المسيح– الصلاة الربانية– تألَّفت من ثلاثة أجزاءٍ:

1- الكلمات (التي تُنطَق بها).

2- الروح (الذي يجعلها تقتدر في فِعلها).

3- العقل (الذي تُفهَم من خلاله).[2]

حتى "يوحنا" المعمدان أيضًا قد علَّم تلاميذه الصلاة، لكن كل أعمال "يوحنا" كانت في الحقيقة موضوعةً كأساسٍ للمسيح، حتى متى ازداد المسيح – كما سبق وأعلن يوحنا ضرورة ذلك في قوله: "ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقُص"[3]– فحينئذ

---

[1] (مت9: 16، 17)، (مر2 :21، 22)، (لو5: 36، 37)

[2] لم تُذكر النقطة الثالثة في هذا المكان في النص الأصلي، لكنني وضعتها في هذا المكان للتوضيح, والتسهيل على القارئ. {المترجم}

[3] (يو3: 30)

تنتهي كل أعمال السابق (المعمدان) – وحتى حياته أيضًا – بمجرد ظهور الرب. لذلك، فإن كلمات الصلاة التي علَّم بها "يوحنا" تلاميذه لم تعد موجودة، لأن الأرضيات قد أعطت مكانًا للسماويات كما قال "يوحنا": "الذي من الأرض... مِن الأرض يتكلم"،[1] "والذي يأتي من السماء هو فوق الجميع، وما رآه وسمعه به يشهد".[2]

فهل يمكن أن يوجد في السيد المسيح شيءٌ غير سماويٍ؟! لِذا أيها الإخوة المبارَكون، دَعُونا أولاً نتأمل في حكمته السماوية المتعلّقِة بوصية "الصلاة في الخفاء"، والتي قوَّم بها إيمان الإنسان بأنه لابد أن يثق في إمكانية رؤية وسماع الله القدير تحت الأسطح،[3] بل وحتى في الأماكن البعيدة عن الأنظار. إنَّ تقديم العبادة لله وحده – الذي يؤمن الإنسان برؤيته وسماعه في أي مكان – يحتاج إلى الإيمان المتضع.[4]

ثم نجح أقنوم الحكمة أيضًا بعد ذلك أن يجعل الوصية التالية – والتي هي عدم الظن بأن الاقتراب من الله يكون بكثرة الكلمات – تتم بنفس الطريقة المتعلِقة بالإيمان والتواضع في الإيمان. إننا واثقون بأنه يتخذ الاحتياطات اللازمة لأجل خاصته, دون حتى أن يطلبوا.[5]

وهذا الاختصار الشديد[6]– والذي سوف يقودنا إلى النقطة الثالثة من مكونات

---

[1] (يو3: 31)

[2] (يو3: 31، 32)

[3] أي في المخادع.

[4] الاتضاع المقصود هنا هو عدم التظاهر بالصلاة أمام الناس لنوال مديحهم مثل المرائين. (مت6 :5، 6)

[5] (مت6: 8)

[6] أي كلمات الصلاة الربانية التي تُعتبَر (المختصر المفيد). {المترجم}

الصلاة، والتي هي (العقل)[1]– مُدعَّم بمادةٍ تفسيريةٍ عظيمةٍ مباركةٍ تفيض بالمعاني المضغوطة في كلماتٍ. إنها تَضُم، ليس فقط الفرائض الخاصة بالصلاة – سواء تكريم اسم الله أو الطِلبة لأجل إنسانٍ– بل تضم تقريبًا كل حديثٍ مع الله، وكل تسجيلٍ لتعاليمه، بحيث تكون في الحقيقة خُلاصَة الإنجيل كله، موجودةً في الصلاة الربانية.

الفصل الثاني

الجملة الأولى من الصلاة الربانية

تبدأ الصلاة الربانية بشهادةٍ لله، وبمكافأةٍ لمَن يؤمن به، وذلك عندما نقول: "أبانا الذي في السماوات". إننا بقولنا هذا نصلي إلى الله، وفي نفس الوقت نُظهر إيماننا، الذي مكافأته هو هذا اللقب،[2] كما هو مكتوبٌ: "أمَّا كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولادًا لله".[3]

على كل حالٍ، إن ربنا يسوع المسيح قد أعلن لنا مرارًا كثيرة أن الله هو أبونا، بل وأوصى قائلاً: "لا تدعُوا لكم أبًا على الأرض، لأن أباكم واحدٌ الذي في السماوات".[4] وهكذا، فنحن نُطبِّق الوصية بهذه الصلاة.

طوبى للذي يعرف أباه! لأن هذه هي الملامة التي أُخِذَت على شعب إسرائيل، والذين يُشَّهِد الروح عليهم السماء والأرض قائلاً: "ربيت بنينًا ونشَّأتهم وأمَّا هم

---

[1] وهو ما قد سبق وأشرنا إلى أن ذاك كان الموضع الأنسب لهذه النقطة. والمقصود بالعقل هنا هو الفهم لكلمات الصلاة، والاقتناع بأن الله يرانا في الخفاء، وأن الصلاة بفهمٍ وروحٍ وألفاظٍ مناسبة, هي الصلاة المقبولة. {المترجم}

[2] أي أننا بقولنا: "أبانا" نشهد أن الله هو الآب والخالق، وفي نفس الوقت فإننا بانتسابنا له كأبناءٍ يخاطبون أباهم، نأخذ منه مكافأة إيماننا، والتي هي أن نُدعَى أبناءً له. {المترجم}

[3] (يو1: 12)

[4] (مت23: 9)

فعصوا عليَّ".[1] وعلاوة على ذلك، فإننا عندما نقول: "أبانا"، فإننا ندعوه كذلك "ربنا". هذا اللقب يُشعِرنا بواجبات البنوة، ويُشعِرنا أيضًا بالقوة.

إننا عندما نتضرع للآب، فإننا نتضرع للابن أيضًا، فلقد قال: "أنا والآب واحدٌ".[2] كذلك نحن لا ننسى أيضًا أُمنا الكنيسة، لأنها ظاهرة في الآب والابن، ومِنها يُرفع اسم كليهما. إذًا، ففي مصطلحٍ أو لفظٍ واحدٍ, نمجد الله ونمجد خاصته[3] معه. نراعي الوصية، ونضع حدًا لمثل هؤلاء الذين نسوا أباهم.

الفصل الثالث

الجملة الثانية

لم يُعلَن اسم الله الآب لأحدٍ، فحتى "موسى" الذي استفهم من الله عن هذا الأمر بالذات، قد سمع اسمًا مختلفًا.[4]

أمَّا بالنسبة لنا، فقد أُعلن هذا الاسم في الابن، لأن الابن الآن هو الاسم الجديد المُعلَن للبشر،[5] فلقد قال: "أنا قد أتيت بِاسم أبي ولستم تقبلونني"،[6] وأيضًا قال: "أيها "أيها الآب مجِّد اسمك"،[7] وأعلنها أكثر صراحةً في قوله: "أنا أظهرت اسمك للناس".[8]

---

[1] (أش1: 2)

[2] (يو10: 30)

[3] يقول (Dodgson): إن خاصته هم (الابن والكنيسة), وهذا هو رأى المترجم أيضًا. أمَّا (Oehler) فيقول: إنهما (الابن والروح القدس).

[4] (خر3: 13 – 16)

[5] "الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبر". (يو1: 18)

[6] (يو5: 43)

[7] (يو12: 28)

[8] (يو17: 6)

من أجل هذا نحن نصلي قائلين: "ليتقدس" هذا الاسم. ليس هذا معناه أن البَشر يتمنون الخير لله، وكأنه يوجد آخرون[1] يتمنون له الخير، أو أنه قد يُعاني بدون هذه الأمنية. فمِن الواضح أن الله يليق به أن يُبارَك من الجميع في كل مكانٍ[2] وكل وقتٍ، كي يتذكر الإنسان استحقاق الله للشكر الدائم على عطاياه. ومع ذلك، فهذه الطِلبة تَصلُح أيضًا لنوال البركة.

مِن ناحيةٍ أخرى، هل جاء وقتٌ لَم يكن فيه اسم الله مقدَّسًا، وقدوسًا في ذاته؟ فبما أنه يُقدِّس الكل بنفسه، حيث أن دائرة الملائكة المحيطين به لا تكُف عن قول: "قدوس، قدوس، قدوس",[3] فنحن أيضًا على نفس المِنوال نتزكى للوصول إلى الصورة الملائكية إذا نجحنا في أن نستحقها. فنبدأ هنا على الأرض باجتهادٍ أن نحفظها عن ظهر قلبٍ, إلى أن نرتفع إلى الله في اليوم الأخير، ونأخذ وظيفة مجد المستقبل. كما أننا نقولها أيضًا في الوقت الحالي لأجل تمجيد الله.

ومن ناحيةٍ أخرى، فمع قولنا: "ليتقدس اسمك"، فإننا نصلي أن يتقدس اسمه فينا نحن الذين فيه، وكذلك في كل الآخرين الذين تنتظرهم نعمة الله. نصلي أن نطيع الوصية أيضًا في صلاتنا "لأجل جميع الناس"،[4] بل وحتى لأجل أعدائنا.[5]

لأجل هذا، بطِلبتنا القلبية، وبلسانٍ خفيٍ، لا نقول: "ليتقدس فينا"، بل ليتقدس "في الجميع".

---

[1] قد يكون المقصود بالآخرين هم أي إله آخر. {الترجمة الإنجليزية}

[2] "باركوا الرب يا جميع أعماله في كل مواضع سلطانه، باركي يا نفسي الرب". (مز103: 22).

[3] (أش6: 3)، (رؤ4: 8).

[4] (1 تي2: 1)

[5] (مت5: 44).

الفصل الرابع

الجملة الثالثة[1]

بُناءً على هذا الشكل من الصلاة، نُضيف قائلين: "لتكن مشيئتك. كما في السماء كذلك على الأرض". ليس هذا معناه أن هناك قوةٌ ما تقاوِم إتمام مشيئة الله، وكأننا نصلي لأجل نجاح مشيئته. لكن معناه أننا نصلي لأجل أن تكون مشيئته في الكل، كي يكون جسدنا وروحنا هما الأرض والسماء (بمعنى رمزي).

وحتى إذا فهمنا هذه العبارة حرفيًا، فمازال معنى الطِلبة هو نفسه، أي أن تتم مشيئة الله فينا على الأرض حتى يمكن أن تتم مشيئته أيضًا في السماء. فما هي مشيئة الله سوى أن نسير حسب تعاليمه، ونتضرع فيعطينا ما يشاء لنا، ويعطينا القدرة على عمل مشيئته حتى نَخلُص على الأرض وفي السماء؟! إن محصلة مشيئته هي خلاص مَن صاروا أبناءه.[2]

كذلك هناك مشيئة الله (الآب) التي أتمَّها (الابن) في الكرازة والعمل والاحتمال. وبما أنه قد أَعلن أنه لا يفعل مشيئته بل مشيئة الآب – وبدون شكٍ فإن الأشياء التي اعتاد أن يعملها كانت هي مشيئة الآب[3] – فَعلَى هذا النمط، نحن الآن مدفوعون بقوةٍ للكرازة والعمل والاحتمال، وحتى إلى الموت. لذا، فنحن نحتاج مشيئة الله، حتى نصبح قادرين على إتمام هذه الواجبات.

وكذلك في قولنا: "لتكن مشيئتك", فإننا نرجو الخير لأنفسنا أيضًا، لأنه لا يوجد شيءٌ من الشر في مشيئة الله. فحتي لو كانت مشيئته هي التأديب المناسب لكل شخصٍ، أو كانت مشيئته مفروضةً علينا: "فلتكن مشيئته". وبهذا التعبير، نحن

---

[1] من المفترض أن الجملة الثالثة هي "ليأتي ملكوتك"، ولكن ترتليان قَدَّم الرابعة على الثالثة لتوضيح معني معين في تفسيره للصلاة الربانية. {المترجم}

[2] "لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية". (يو3: 16).

[3] (يو6: 38)

نهيئ أنفسنا للصبر والاحتمال.

إن الرب أيضًا عندما أراد أن يُرينا على أرض الواقع ما هو الألم, قال: "يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس"،[1] ثم ذكَّر نفسه بـ "لتكن لا إرادتي بل إرادتك".[2] ورغم أنه كانت له مشيئة وقوة الآب، فمع ذلك استسلم لإرادة الآب، لأجل أن يرينا الاحتمال الواجب.

الفصل الخامس

الجملة الرابعة

إن عبارة "ليأت ملكوتك" تُنسب أيضًا لعبارة "لتكن مشيئتك"، وكلاهما يتم فينا. فكيف لا يكون الله ملكًا، وهو الذي في يده قلوب جميع الملوك؟[3] إننا معه ننتظر أن نأخذ ما أردنا لأنفسنا مهما كان، وننسِب إليه كل ما نحصل عليه.

فإن كان استعلان ملكوت الله يتعلق بإرادة الله، وبتوقعاتنا القلقة، فكيف لبعض الصلوات أن تطيل أمد هذا الدهر،[4] حين يأتي ملكوت الله الذي نصلي لأجل قدومه، ويؤول إلى انقضاء الدهر؟ إن رغبتنا هي التعجيل بأن نملك معه، وليس مَد مُدة عبوديتنا. فحتى لو لم تكن الصلاة قد أقرَّت وجوب طلب مجيء الملكوت، فكان سيتوجب علينا طوعًا أن نرفع صراخنا متعجلين نوال رجائنا.

إن أرواح الشهداء تحت المذبح تصرخ بحرارةٍ إلى الرب قائلة: "حتى متى أيها السيد القدوس والحق لا تقضي وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض"،[5] فمِن المؤكد أن ثأرهم مرتَّب له في نهاية الدهر.

---

[1] (مت26: 39)

[2] (لو22: 42)

[3] (أم21: 1)

[4] يشير "ترتليان" إلى بعض الناس الذين يُصلُّون لأجل تأجيل مجيء ملكوت الله.

[5] (رؤ6: 10)

كلَّا يا رب، بل صلاة المسيحيين هي هذه: "ليأت ملكوتك" بكل سرعةٍ، فإن ملكوتك سوف يجعل الوثنيين يرتبكون، وسيجعل الملائكة يتهللون. ليس لأجل ما نعانيه، بل لأجل حدوث الأمر الذي نصلِّي من أجله.

الفصل السادس

الجملة الخامسة

لكن ما أروع ترتيب الحكمة الإلهية لأمر الصلاة، فبعد ذِكر الأشياء السماوية التي هي اسم الله ومشيئة الله وملكوت الله، كان لابد للحكمة الإلهية أن تعطي مكانًا للطِلبة من أجل الاحتياجات الأرضية. لذلك، فقد أضاف الرب هذا الأمر قائلاً: "اطلبوا أولاً ملكوت الله وبرَه، وهذه كلها تزاد لكم"،[1] ولو أننا يجب أن نفهم بالأَولى قوله: "خبزنا كفافنا أعطنا اليوم" فهمًا روحيًا.

إنَّ المسيح هو خبزنا, لأنه هو الحياة، والخبز هو الحياة كما قال: "أنا هو خبز الحياة"،[2] وقال قبلها بقليلٍ: "لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم".[3] إنه يعتبر جسده أيضًا هو الخبز في قوله: "هذا هو جسدي"،[4] وبذلك فإننا في الطِلبة لأجل خبزنا كفاف يومنا، نطلب أن نحيا للأبد في المسيح، وأن لا نفترق عن جسده.

ولكن، لأن هذا القول مقبولٌ أيضًا مِن جهة المعنى الجسدي، فلا يمكن استخدامه بدون إضافة الجانب الديني والتعليم الروحي. إن الرب في قوله: "وهذه كلها تطلبها الأمم"،[5] قد أمر بأن يكون الخبز الذي نصلي من أجل أخذه, هو الغذاء

---

[1] (مت6: 33)

[2] (يو6: 35)

[3] (يو6: 33)

[4] (مت26: 26)

[5] (مت6: 32)

الغذاء الوحيد الضروري للمؤمنين. ونفس الدرس أيضًا ثبَّته في الأذهان بأمثلةٍ، وتناوله مرارًا في أمثالٍ حينما قال: "هل يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب"،[1] ومرة أخرى قال: "هل يَطلب الابن من أبيه خبزًا فيعطيه حجرًا"،[2] لكي ما يوضح أن ذلك هو ما ينتظره الأبناء من أبيهم.

ليس هذا فقط، بل وكذلك في مثَل الطارق ليلاً، والذي طرق الباب لأجل الخبز،[3] فإنه قد وضع بإحكامٍ هذا القول: "أعطنا اليوم", لتأكيد ما قاله سابقًا: "لا تهتموا للغد بما تأكلون..."،[4] وأعطى تطبيقًا لنفس الغرض أيضًا في مَثَل الرجل الذي فكَّر في توسيع مخازنه لأجل المحاصيل الآتية، ولأجل تأمينٍ طويل المدى للمواسم، ومات في نفس الليلة.

الفصل السابع

الجملة السادسة

لقد كان من المناسب بعد التأمل في كَرَم الله[5] أن نلتمس رحمته بالضرورة، فبماذا فبماذا ينفعنا الطعام إذا ما استسلمت أنفسنا له مثل الثور المُسلَّم للتضحية؟ لقد كان الرب عارفًا[6] أنه الوحيد الذي بلا خطية، ولذلك فهو يُعلِّمنا أن نتضرع قائلين: "وأغفر لنا ذنوبنا".

إن الصلاة لأجل مغفرة الخطايا هي اعترافٌ كاملٌ، لأن مَن يطلب المغفرة يعترف اعترافًا كاملاً بخطئه، وكذلك التوبة أيضًا تَظهر مقبولة أمام الله الذي يريدها أكثر

---

[1] (مت15: 26)، (مر7: 27)

[2] (مت7: 9)، (لو11: 10)

[3] (لو11: 5-9)

[4] (مت6: 34)، (لو12: 9)

[5] المتمثل في إعطائه لنا خبز الكفاف.

[6] بعِلمه السابق.

من موت الخاطئ.

علاوة على ذلك، فإن الخطية في الكتاب المقدس هي شكلٌ من أشكال الجريمة، لأنها تساوي حكم المحكمة، والمتهم مُطالَبٌ بتنفيذه. فلا يمكن الإفلات من العدالة إلا إذا تم إعفاء الشخص من الحكم, بالضبط مثلما صفَح الرب عن ذنب العبد في المَثل,[1] مع أن نفس العبد بعد تحريره من قِبل الرب، لم يَعف بالمِثل عن مدينِه. وبكونه متَّهمًا أمام سيده،[2] فقد سُلِّم إلى المُعذِّب حتى يوفي الفِلس الأخير– أي كل ذنبٍ فعله مهما كان صغيرًا. وهذا يتناسب مع مناداتنا: "كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا"، ويوجد بالفعل ما يطابق هذه الصلاة في موضعٍ آخر، حينما قال الرب: "اغفروا، يُغفَر لكم"[3].

وعندما سأل بطرس:"هل تكون المغفرة للأخ سبع مراتٍ؟"فلِكي يصيغ الرب الناموس للأفضل قال:"كلَّا،بل إلى سبعين مرة سبع مراتٍ".[4]مثلما في سِفر التكوين، التكوين، حينما حُدِّد الانتقام لقايين سبع مرات،ولكن لـ"لامك" كان الانتقام"سبع وسبعين".[5]

---

[1] الموجود في (مت18: 21 ـ 35)

[2] الذي صفح عنه منذ قليل.

[3] (لو6: 37)

[4] (مت18: 21 ـ 22)، في النص الأصلي ذكرها ترتليان "سبع وسبعين"، وقد يكون ذلك لتأكيد التشبيه, أو بسبب عدم الدقة. {المترجم}

[5] لأن الرب رحومٌ في غفرانه، ولكن في نفس الوقت هو عادلٌ في انتقامه.

الفصل الثامن

الجملة السابعة والأخيرة

ولأجل إتمام هذه الصلاة المختصرة جدًا، يجب علينا أن نتضرع، ليس فقط لأجل ما يتعلق بالمغفرة، بل لأجل اجتناب فِعل الخطية اجتنابًا كاملاً. لأجل هذا أضاف الرب قائلاً: "ولا تدخلنا في تجربة"، بما معناه: "اسمح لنا أن لا نخوض التجربة" عن طريق المجرِّب بالطبع. لكن حاشا لله أن يكون هو نفسه المجرِّب،[1] وكأنه عديم المعرفة بإيمان كل فردٍ، أو كأنه متلهفٌ لهدم إيمان الإنسان، فالضَعف والحقد هما من صفات الشيطان.

إن الله قد أمر إبراهيم أن يضحِّي بابنه، ليس لأجل التجربة، بل لإثبات إيمانه. ولكي من خلال إيمان إبراهيم يقدِّم مثالاً لوصيته، التي فيها أوصي الإنسان بعد ذلك بفترة بألَّا يحمل أي ارتباطٍ عاطفيٍ بأحدٍ أكثر من الله.[2] وهو نفسه حينما جُرِّب من إبليس أظهر أنه المتصدر، وأنه خالق التجربة أيضًا.[3] فلقد أكد هذه العبارة بعبارةٍ أخرى لاحقة حينما قال: "صلُّوا لكي لا تدخلوا في تجربة".[4] ومع ذلك، فقد جُرِّب التلاميذ لتخلِّيهم عن سيدهم, لأنهم أعطوا مكانًا للنوم بدل الصلاة.

لذلك، فإن الجملة الأخيرة "لكن نجنا من الشرير" تُلائِم وتفسِّر معنى الآية "لا تُدخلنا في تجربة".

---

[1] (يع1: 13) "لأن الله غير مجرَّب بالشرور، وهو لا يجرِّب أحدًا"

[2] (مت10: 37)، (لو14: 26)

[3] (مت4: 10)، (لو4: 8)

[4] (لو22: 40)، (مت26: 41)، (مر14: 31)

الفصل التاسع

تلخيص

فكَم تكلم الأنبياء والإنجيليون والرسل، وكم قال الرب من أحاديثٍ وأمثلةٍ وأمثالٍ، كلها تشير إلى هذا الموجز المكوَّن من كلماتٍ قليلةٍ،[1] والذي تحققت فيه هذه الفرائض:

1- تكريم الله في كلمة "أبانا"[2].

2- استعلان الإيمان في هذا "الاسم"[3].

3- تقديم الطاعة "لمشيئته".

4- التذكير برجائنا في "الملكوت".

5- الطِلبة من أجل الحياة، متمثِّلة في صورة "الخبز".

6- الاعتراف الكامل بالذنوب في الصلاة من أجل "المغفرة".

7- الخوف والقلق من التجربة في صورة طلب "الحماية".

وما العجب في هذا؟ فالله وحده هو القادر أن يعلِّمنا ما يريده مِنَّا في الصلاة المرفوعة إليه. لذلك, فقد رتب بنفسه الطقس الديني للصلاة، وأعطاه الحياة بروحه. حتى أن كلمات الصلاة, في اللحظة التي خرجت فيها من فمه الإلهي، ارتفعت إلى السماء بما تحمله من امتيازٍ،[4] مُظهرة للآب ما قد علَّمه الابن.[5]

---

[1] الذي هو كلمات الصلاة الربانية. {المترجم}

[2] أي الكرامة التي أعطاها لنا الله كي نُدعى أولاده. {المترجم}

[3] أي إعلاننا أننا نؤمن بأن الله هو الإله وهو أبونا. {المترجم}

[4] امتياز كونها صلاة إلهية. {المترجم}

[5] لتلاميذه. أي كيف يصلُّون الصلاة المقبولة عند الآب. {المترجم}

الفصل العاشر

في إمكانية إضافة صلوات خاصة[1] إلى جانب الصلاة الربانية.

ومع ذلك، فإن الرب العارف[2] باحتياجات الإنسان[3]– بعدما سَلَّمهم قانون الصلاة – قال في موضعٍ آخر: "اسألوا تعطوا".[4] وبما أن هناك طِلبات تُقام بحسب ظروف كل فردٍ، إذًا، فإن احتياجاتنا الإضافية لها الأحقية[5] في أن تقيم لنفسها بِناءً خارجيًا من الطِلبات،[6] مع تذكُّر وصايا السيد. أي بعد الابتداء بالصلوات القانونية المعتادة كأساسٍ للصلاة كيفما يكون.

إننا لسنا بعيدين عن أُذُني الرب, بنفس مقدار بُعدنا عن وصاياه.[7]

[1] أي الصلوات الفردية الارتجالية.

[2] بعلمه السابق.

[3] (مت6: 8)

[4] (مت7: 7)، (لو11: 9)

[5] إن جاز التعبير.

[6] أي الطلبات الذائدة عن الصلاة الربانية.

[7] هذا الجزء موجود في ترجمة Oehler كبداية للفصل التالي، ولكن التقسيم الأدق هو أن يوضع في نهاية هذا الفصل.

الفصل الحادي عشر

عندما تصلّي "الأبانا" لا يجب أن تكون غاضبًا من أخيك.

إن تذكُّر وصايا الرب يمهد لصلواتنا طريقًا إلى السماء، وأهم هذه الوصايا هي ألَّا نتقدم إلى مذبح الله قبل أن نُسوِّي أي خلافٍ بيننا وبين إخوتنا.[1] فما هو نوع العمل الذي يمكن به أن نقترب من سلام الله[2] بدون قُبلة السلام؟[3] وكيف تحصل على مغفرة الخطايا بينما أنت تحتفظ بها؟ وكيف يمكن لهذا الغاضب من أخيه أن يُهدِّئ أباه، بينما كل أنواع الغضب مُحرَّمة علينا منذ البدء؟[4]

إن يوسف عندما صرف إخوته بغرض إحضار أبيهم، وقال لهم: "لا تتغاضبوا في الطريق"،[5] كان في نفس الوقت يحذِّرنا أن نكون متأكدين عندما نبدأ طريق الصلاة، ألَّا نذهب إلى الآب ونحن غاضبون، لأن المسيحية قد دُعيت بـ (الطريق)[6] في موضعٍ آخر من الكتاب المقدس. ثم بعد ذلك وسَّع الرب نطاق الناموس،[7] وأضاف صراحةً: إن غضب الإنسان من أخيه محرَّمٌ كتحريم القتل،[8] ولم ولم يسمح حتى بنطق كلمة شريرة عليه.[9]

لذلك, فعندما نغضب يجب ألا نحتفظ بغضبنا بعد غروب الشمس[10]– كما

---

[1] (مت5: 22، 23)

[2] (في4: 6، 7)

[3] مع الناس

[4] (تك4: 6، 7)

[5] (تك45: 24)

[6] (أع9: 2)، (أع19: 9، 23)

[7] (مت5: 17)

[8] (مت5: 21، 22)

[9] (مت5: 21، 22)، (1بط3: 9)

[10] (أف4: 26)

حذَّر الرسول.

إذًا، كم هو من التهور أن تسمح بمرور اليوم بدون صلاةٍ، بينما أنت ترفض أن تُرضي أخاك. وبمعنى آخر، لماذا تَفقد صلاتك بتمسكك بالغضب؟

الفصل الثاني عشر

لابد أن نتحرر كذلك من كل اضطرابٍ عقلي.

يجب علينا ألا نتحفظ فقط من الغضب، بل ينبغي أن نتحفظ تمامًا من كل اضطرابٍ للعقل. ينبغي أن تكون ممارسة الصلاة خالية تمامًا من الغضب، منطوقة من روحٍ[1] تشابه ذلك الروح الذي تُرسَل إليه الصلاة، لأن الروح القدس لا يعترف بالروح النجس، وروح الفرح لا يعترف بروح الحزن،[2] والروح الحُر لا يعترف بالمربوط. لا يوجد أحدٌ يسمح لعدوه بأن يقابله، ولا يوجد أحدٌ يسمح بدخول بيته إلا لرفيقه.

---

[1] أي روح نقية. {المترجم}

[2] (رو14: 17)

الفصل الثالث عشر

غسيل الأيدي

ولكن ما هو الداعي إلى الصلاة بأيدي مغسولة حقًا، ولكن بروحٍ دنسة؟ إن أيدينا نفسها تحتاج بالضرورة إلى تنقية روحية، حتى يمكن أن تُرفع وهي طاهرة[1] من الكذب، والقتل، والقسوة، والفساد،[2] وعبادة الأوثان، ومن كل العيوب الأخرى التي تصوّرِها روح الإنسان، والتي تتأثر بمصنوعات الأيدي.

هذه هي النقاوة الحقيقية،[3] وليست تلك التي يهتمون بها غالبًا بشكلٍ خرافي، باغتسالهم بالماء عند كل صلاةٍ، حتى ولو كانوا خارجين توًا من غسيلٍ كاملٍ لكل الجسم!

عندما كنت أبحث بتدقيقٍ شديدٍ عن هذه الممارسة وعن سببها، تأكدت من أنه عملٌ تذكاريٌ، وأنه يشبه تسليم ربنا (للصَلب).[4]

على العموم، نحن لا نصلي للرب لأجل أن نسلمه، بل يجب علينا أن نضع أنفسنا في موضعٍ مختلفٍ عن الذي أسلمه، ولا نغسل أيدينا لنفس السبب. وحتى إذا كان هناك سلوكًا نَجسًا في معاملاتنا مع الناس، وكان هذا سببًا في تأنيب الضمير بأن نغسلهم، فإنهم في الواقع قد تنقوا بقدرٍ كافٍ عندما غُسلوا مع كل أجسادنا مرةً واحدةً في المسيح.[5]

---

[1] (1 تي2: 8)

[2] أو السحر والعرافة. (الترجمة الإنجليزية)

[3] (مت15: 10، 11، 17 – 20)، (مت23: 25، 26)

[4] وكأنهم يغسلون أياديهم من الخطايا مثلما فعل "بيلاطس" (مت27: 24)

[5] في المعمودية.

الفصل الرابع عشر

إضافة

ورغم أن شعب إسرائيل كان يغسل أطرافه كل يومٍ، فهو مع ذلك لم يتنقَ أبدًا. أيديهم في كل الأحوال متَّسِخةٌ وملطَّخةٌ بدماء الأنبياء إلى الأبد، وبدم الرب نفسه.

لذلك، ولكونهم مجرمين بالوراثة لعِلمهم بجرائم آبائهم،[1] فإنهم لا يجسرون حتى أن يرفعوا أياديهم إلى الرب لئَلا يوبخهم إشعياء بعض التوبيخ،[2] وخشية أن يرجفهم المسيح بالكُلّية.

وأما نحن, فلا نرفع أيادينا فقط، بل نبسطها أيضًا آخذين مثال آلام الرب،[3] حتى نعترف[4] للمسيح في الصلاة.

---

[1] (مت23: 31)، (لو11: 48)

[2] (أش1: 15)

[3] الذي بسط يديه على عود الصليب.

[4] أي نمجد

الفصل الخامس عشر

خلع العباءات[1]

والآن، بعد أن أشرنا إلى إحدى النقاط الخاصة بالممارسات العقيمة، سيكون من السهل علينا أن نسجِّل بالمِثل رفضنا الشديد للنقاط الأخرى التي تستحق الملامة لكونها باطلةً، لأنها تُراعَى بدون سندٍ من أيَّة وصيةٍ، سواء من الرب أو حتى من الرسل. فإن الأمور من هذا القبيل لا تتعلق بالدين، بل بالخرافات التي نتعلمها ونُجبَر عليها، وهي أمور غريبة أكثر من كونها عبادة عقلية،[2] بل وتستحق المنع في كل الأحوال لأنها تضعنا في نفس مستوى الأمم.

فمثلاً، هناك عادة للبعض أن يضعوا عباءاتهم جانبًا عندما يُصلُّون، وهكذا أيضًا يتقرب الأمم لأوثانهم. بالتأكيد لو كان من المناسب مراعاة ذلك، لكان الرُسل الذين علَّموا عن الاهتمام بالزي المناسب للصلاة،[3] قد اشتملت تعاليمهم عليها. إلَّا إذا ظنَّ أحدٌ أن بولس ترك عباءته مع "كاربُس" أثناء الصلاة![4]

بالتأكيد لم يسمع الرب لهؤلاء المُصَلِّين[5] وهم لابسون عباءاتهم، بل من الواضح أنه استجاب للثلاثة القديسين المُصَلِّين بسراويلهم وعمائمهم في أتون ملك بابل.[6]

---

[1] أيضًا من عادات اليهود.

[2] (رو12: 1)

[3] (1 كو11: 3 – 16) عن غطاء الرأس وقت الصلاة بالنسبة للرجل والمرأة.

[4] (2 تي4: 11)

[5] الذين هم حكماء بابل.

[6] (دا3: 21)

الفصل السادس عشر

الجلوس بعد الصلاة[1]

بالمثل، فيما يتعلق بعادة البعض في الجلوس بعد انتهاء الصلاة، لا أرى أي داعٍ لها إلا التشبه بالأطفال.[2]

فهل ينبغي لنا أن نتمسك بما فعله "هرماس"[3] الذي له كتابات مُسجلة في كتابٍ بعنوان "الراعي", والذي بعدما انتهى من الصلاة فَعل أشياءً أخرى, ولم يجلس على فراشِه؟ هل هذا أيضًا أمرٌ يجب مُراعاته؟! بالطبع لا.

وإن كان أمرًا يجب مُراعاته، فلماذا لا نعتبر عبارة "بعدما صليت وجلست على فراشي"[4] أمرًا نموذجيًا للتعليم، وليست مجرد عبارةٍ في سياق الحديث؟! بل وأيضًا سيكون من الواجب علينا ألَّا نصلي في أي مكانٍ إلا إذا كان هناك فِراش! ليس هذا فقط، بل ويكون كل من يجلس على كرسي أو أريكة هو مخالفٌ للتعليم[5]!

علاوة على ذلك، تستحق هذه الممارسة المَلامة من داخلنا لأنها تُراعَى في عبادة الأوثان، حيث أن الأمم يفعلون نفس الشيء – أي الجلوس عند عبادة تماثيلهم الحقيرة. أضف إلى ذلك الوقاحة أيضًا، وهو أمرٌ واضحٌ كذلك بالنسبة للأمم أنفسهم، إن كان عندهم فهم! فمِن ناحية، إنه عدم احترام أن تجلس تحت مرأى،

---

[1] وهي أيضًا عادة من عادات يهود ذاك العصر التي ليس لها أي مرجعٍ كتابيٍ أو دينيٍ. {المترجم}

[2] أي مثلما يفعل الأطفال تعبيرًا عن شعورهم بالتعب بعد وقفة الصلاة، وقد يكون قصده أن اليهود يقلّدون الوثنيين مثلما يقلّد الأطفال الكبار.

[3] يوجد كتابٌ اسمه كتاب "الراعي" لمؤلفه "هرماس"، وكان يُقرأ في الكنائس حتى القرن الرابع كسفرٍ من أسفار الكتاب المقدس، ولكنه الآن يُعتبر قصةٌ خياليةٌ لشخصٍ غير معروفٍ, ومن ضمن أسفار أبوكريفا العهد القديم. و"ترتليان" يعتبره شخصًا غير معروفٍ، بينما يعتقد "أوسابيوس" و"ق.جيروم" و"أوريجانوس" أنه "هرماس" تلميذ بولس الرسول المذكور في (رومية 16).{المترجم}

[4] وهي عبارة كانت تُكتب كثيرًا في القصص في ذلك العهد.{المترجم}

[5] كلها عبارات سخرية، حيث كان هذا هو أُسلوبه.

وأمام عيني من تُكِن له كل الاحترام والتوقير. ومن ناحيةٍ أخرى، فإن هذه الممارسة تكون أكثر وقاحةٍ بكثير لأن فيها عدم تديُّن تحت مرأى الإله الحي, في الوقت الذي فيه الملائكة يصلُّون دائمًا وهم وقوفٌ أمامه،[1] إلا اذا كُنا بذلك نريد أن نعاتب الله لأن الصلاة قد أتعبتنا كثيرًا![2]

الفصل السابع عشر

الأيادي المرفوعة.

أمَّا نحن، فإننا نُقدِّر الله أكثر في صلواتنا حينما نُصلي بخضوعٍ وتواضعٍ، حتى دون أن نرفع أيدينا عاليًا، بل باعتدالٍ ولياقةٍ. ولا حتى نرفع وجوهنا بتجاسرٍ شديدٍ، لأن العَشَّار الذي صلَّى بتواضعٍ وبروحٍ منكسرةٍ – ليس فقط بتضرعِه، بل وأيضًا بوجههِ المنخفض– خرج أكثر تَبررًا من الفريسي الوقح.[3]

وبالمِثل، ينبغي لنا أن نُخفض نبرات أصواتنا، فلو كان سماع صلواتنا يكون بضجيجنا، فكم يجب أن يكون حجم قصبتنا الهوائية؟! لكن الله سامعٌ، ليس للصوت بل للقلب، لأنه هو فاحِصه بالحقيقة.

وإن كان الوحي الشيطاني للإله "أبُلُّون" يقول: "أنا أفهم الصامت وأسمع الأبكم بوضوحٍ"،[4] فهل تنتظر أُذنا الله سماع الأصوات؟ فكيف اذًا استطاعت صلاة "يونان" أن تجد طريقها للسماء من عمق جوف الحوت، من أحشاء الوحش الضخم، من الأعماق السُفليَّة! وكيف عَبرت خلال كميةٍ مهولةٍ من ماء البحر؟!

فما هي إذًا الفائدة العظيمة التي سوف يحصل عليها هؤلاء الذين يُصَلُّون

---

[1] يُصلُّون لأجل البشر. أنظر (طو 12: 12)، (لو 2: 1)، (رؤ 8: 3،4).

[2] أي أن طول مدة الصلاة التي قدمناها قد أتعبتنا كثيرًا، فلماذا لا يستجيب بسرعة؟ {المترجم}

[3] (لو 18: 9–14)

[4] في الكتابات الوثنية.

بصوتٍ عالٍ جدًا؟! لا شيء سوى أنهم سوف يُضايقون جيرانهم. فهل صلواتِهم المسموعة ستجعلهم أقل خطأً مما لو كانوا يُصلُّون أمام الناس ؟![1]

الفصل الثامن عشر

قُبلة السلام

وهناك عادةٌ أخرى أصبحت تسود الآن، ألا وهي امتناع الصائمين عن قُبلة السلام, التي هي ختام الصلاة مع الإخوة. فهل يوجد وقتٌ ينبغي فيه أن نَختم الصلاة بالسلام أفضل من وقت الممارسات الدينية؟[2] ففي هذا الوقت تصعد صلواتنا بشكلٍ أكثر قبولاً، ويشاركنا إخوتنا ممارستنا بأنفُسِهم، وبذلك تكون الصلاة لطيفة لأنهم يُصلُّون مع أخيهم – الذي هو أي فردٍ مِنّا– الذي يشعر بسلامهم. فأيَّة صلاة هذه التي تتم بدون القُبلة المقدسة؟[3] ومَن هم الممنوعون من السلام وقت خدمة الرب؟ وأي نوعٍ من القربان هذا الذي يقدِّمه أناسٌ ينصرفون عن السلام؟

مهما كانت صلواتنا، فلن يكون هناك أفضل من حفظ الوصية التي تدعونا لإخفاء أصوامنا.[4] أمَّا الآن، فإن انقطاعنا عن القُبلة سيُظِهر أننا صائمون.

وحتى لو كانت هناك ثمة سبب ما لهذه الممارسة،[5] فلِكي لا تتعدى الوصية، ربما يمكنك أن تؤجل قُبلة السلام في البيت– حيث لا يمكنك أن تُخفي صومك بالتمام– ولكن ينبغي لك أن تتذكر الوصية في أي مكانٍ آخرٍ يمكنك فيه أن تخُفي

---

[1] أي هل يُعتبر هذا مقبولاً أكثر من صلاة المرائين في المجامع وزوايا الشوارع، والتي رفضها السيد المسيح في (مت6: 5،6).

[2] أي وقت الصوم.

[3] التي تعبِّر عن المحبة المتبادلة، انظر (رو 16: 16)، (1كو16: 20)، (2كو13: 12)، (1تس5: 26)، (1بط5: 14).

[4] (مت 6: 16-18)

[5] التي هي الامتناع عن القُبلة المُقدسة.

أعمالك الروحية، وبذلك يُمكنك أن توفي متطلبات التدريب الروحي خارج البيت، وتُنفِّذ الوصية في البيت.[1]

وبالمِثل أيضًا يوم الجمعة العظيمة، عندما يكون الصوم عامًا، فبما أنه أمرٌ مُعلَنٌ، فنحن نترك القُبلة ولا نُظهر أي اهتمامٍ بإخفاء أي شيءٍ مما نفعله بشكلٍ جماعيٍ مع كل الناس.[2]

الفصل التاسع عشر

أيام الاحتراس[3]

وبالمِثل فيما يتعلق بأيام الاحتراس، فالمعظم يظنون أنه ينبغي لهم ألَّا يحضروا صلوات القداس فيها، على أساس أن التناول من جسد الرب لابد أن يكسر الاحتراس. فهل الإفخارستيا إذًا ستلغي خدمةً مخصصةً للرب- التي هي الصوم- أم أنها تربطها بالله بالأكثر؟! ألن يكون احتراسك أكثر خشوعًا إذا ما كُنت واقفًا أمام مذبح الله؟! فعِند التناول والاحتفاظ داخليًا بجسد الرب, فإننا نضمن كِلا الغرضين: الشركة في القرابين، والوفاء بالالتزام.[4]

وإن كان الاحتراس (الانضباط) قد اتَّخذ هذا الاسم من نموذج الحياة

---

[1] التي هي الصوم في الخفاء.

[2] من صوم وصلاة وميطانيات وخلافُه. وحاليًا يُمتنَع عن التقبيل من ليلة الأربعاء من أسبوع الآلام إلى بداية صلوات قداس العيد. {المترجم}

[3] وتسمى أيضًا أيام الانضباط، وكانت هي أيام البرامون, وصوم السيدة العذراء, وأيام الجمعة (والأربعاء أيضًا فيما بعد). وفيها كان المسيحيون في روما في هذا العصر يجتمعون في مكانٍ للتجمع يسمى (Collecta), ويتحركون في موكبٍ واحتفالٍ ديني – في وجود الإكليروس والشعب – لحضور القداس البابوي في كنيسةٍ محددةٍ تسمَّى (Station Church)، وقد رتب "ق. غريغوريوس الكبير" الكنائس المناسبة لكل يومٍ من أيام الاحتراس. {المترجم}

[4] بعدم تناول الطعام بغرض الإفطار، وهو ما يؤكد إمكانية مواصلة الصيام بعد التناول. {المترجم}

العسكرية، حيث أننا أيضًا جيش الله. فبالتأكيد لا يوجد فرحٌ ولا حزنٌ مما قد يصادف المعسكر، يُبطل احتراس الجنود. إن الفرح سوف يجعل التدريبات تجري عن طيب خاطرٍ، والحزن سوف يجعل التدريبات أكثر احتراسًا.

الفصل العشرون

ملابس النساء

أمَّا بخصوص ملابس النساء، فرغم كونَنا رجالاً ضعفاء، إلَّا أن تنوع المناظر يُجبرنا أن نُعالِج الأمر بتجاسرٍ شديدٍ. فبما أن (بولس) الرسول[1] العظيم القداسة قد عالجه، فلن يكون هناك تجاسرًا إذا عالجنا الأمر طِبقًا لما قاله الرسول، وكذلك كانت رسالة بطرس (الرسول) واضحةً تمامًا فيما يتعلق بالحشمة في المَلبس، والزينة، والحد من فخامة الثياب، والتباهي بالذهب، والتصفيف المُبهرَج للشعر. فقد تكلم بنفس كلام بولس، لأنهما قد تكلما بنفس الروح.

الفصل الحادي والعشرون

العذارى

لكن هناك نُقطة عبثًا تُراعى في كل الكنائس، ألا وهى إن كان ينبغي للعذارى أن يتغطين أم لا؟ هذه النقطة يجب البت فيها.

إن هؤلاء الذين يصرِّحون للعذارى بالإعفاء من غطاء الرأس، يستندون على أن الرسول (بولس) لم يُحدد للعذراء بالاسم أن "تُغطى رأسها"[2] بل للمرأة, وليس للجنس كله، وإلا كان قد قال: "الإناث". فيقولون إنه قد حدد فئةً من الجنس المؤنث بقوله: "المرأة"، لأنه لو كان قد حدد الجنس عامة بقوله: "الإناث"، لكان قد جعله

---

[1] (1كو 11: 1-16)، (1 تى 2: 10,9)

[2] (1كو5: 11)

فرضًا مُطلقًا للمرأة، ولكنه بتحديده لفئةٍ واحدةٍ قد فصل الفئة الأخرى عن الأمر بسكوته، فيقولون إنه كان يمكنه إمَّا أن يحدِد العذارى بالخصوص، أو يُعمِّم الأمر بأن يقول: "الإناث"!

الفصل الثاني والعشرون

الإجابة على المناقشة السابقة.

ينبغي لهؤلاء الذين يعطُون هذا التصريح أن يتأملوا في أصل اللفظ ذاته، أي في معنى كلمة "امرأة" الموجودة في أقدم تدوين للكتابات المقدسة. هنا سيجدون أنه يعني الجنس "الأنثوي" كله، وليس مرحلة من هذا الجنس.

فإن كان الله قد أعطى حواء لقب "امرأة"[1] و"أنثى"[2] في الوقت الذي لم تكن فيه قد عَرفت رجلٌ بعد– حيث أن الأنثى تعني الجنس كله، والمرأة تعنى مرحلة مُعينة لهذا الجنس كما هو مفهوم. إذًا, من وقت أن دُعيَت حواء التي لم تتزوج بعد بِاسم "امرأة"، صار هذا اللقب يُطلَق عامةً حتى على العذراء.

لا عجب إذًا أن الرسول– الذي كان بالطبع مُساقًا[3] بنفس الروح الذي كُتبت به الأسفار المقدسة، والذي كُتب به سفر التكوين– قد استخدم اللفظ عينه "المرأة" في الكتابة، والذي ينطبق أيضًا على العذراء كمثالٍ لحواء غير المتزوجة بعد. وفي الحقيقة، إن كل العبارات الأخرى تتفق مع ذلك, حتى ولو كان واضحًا حقًّا أنه لم يحدد العذارى، كما فعل في موضعٍ آخر[4]– حيث كان يُعلِّم عن الأمور المُتعلِّقة بالزواج– لكنه أعلن بما فيه الكفاية أنه كان يُشير إلى ما يخص كل امرأة، بل

---

[1] (تك 23:2)

[2] (تك 27:1)

[3] (2بط 21:1)

[4] (اكو34:7)

والجنس كله، وأنه لا يوجد تمييز بين العذراء وغيرها، رغم أنه لم يذكر اسمها على الإطلاق. لكنه في موضعٍ آخرٍ, تذكر أن يُميز بالاسم، حيث كان من الواجب أن يُفرِّق. بل وأكثر من ذلك، فقد أشار إلى كل فئة بلقبها المُناسب،[1] حيث تمنى ألَّا يُميز بينهم, وألَّا يصنع فرقًا واضحًا.

في الواقع، إن اليونانية التي كَتب بها الرسول رسائله تُقال فيها عادةً كلمة "النساء"[2] أكثر من كلمة "الإناث".[3] ولذلك، لو كان تفسير معنى كلمة "نساء" يدُل على ما تدُل عليه كلمة "إناث"– والتي تُستخدم غالبًا للإشارة إلى الجنس– إذًا فالرسول بقوله "نساء" قد حدد الجنس، وهي الكلمة التي مفهومها يتضمن العذارى.

علاوة على ذلك, فإن التعبير واضحٌ في قوله: "وأمَّا كل امرأة تصلِّي أو تتنبأ ورأسها غير مُغطى فتشين رأسها"،[4] ولكن ما هو معنى "كل امرأة" إلا المرأة في كل أعمارها ومراتبها وأحوالها؟ وبقوله: "كُلّ", لم يستثنِ أيَّة أنثى، مثلما لم يستثنِ كذلك أي رجلٍ من ضرورة عدم تغطية الرأس حينما قال: "كل رجلٍ".[5] ولذلك, كناية عن الجنس الذكوري، أي شخصٍ يندرج تحت اسم "رجلٍ" غير مسموحٍ له بتغطية رأسه، ولا حتى (الشاب).[6] وهكذا أيضًا بالنسبة للجنس الأنثوي، كل مَن تندرج تحت اسم "امرأة" مُلزَمة بتغطية رأسها، وحتى "العذراء".

إن الأمر واحدٌ بالنسبة للجنسين، فينبغي أن يَتَّبع الصغير تعليم الكبير، وإلا كان من المُمكن أن يُسمَح للرجل "البِكر" بأن يغطي رأسه أيضًا ما دامت العذراء لا تُغطى رأسها، لأنهما لم يُذكرا بالاسم! ونكون بذلك قد فرَّقنا بين الرجل والشاب,

---

[1] (1كو 7: 25–34) حيث تحدَّث عن المرأة إذا تزوجت أو لبثت بلا زواجٍ، وفضّل غير المتزوجة.

[2] (GUNAIKAS) في اللاتينية.

[3] (THELEIAS) في اللاتينية.

[4] (1كو5:11)

[5] (1كو4:11)

[6] أي الرجل غير المتزوج.

مثلما فرَّقنا بين المرأة والعذراء!

... وأيضًا في قوله: "أم ليست الطبيعة نفسها تُعلِّمكم؟!"،[1] فهل الطبيعة التي اعتبرت الشَعر غطاءً أو زينةً للمرأة، وتُعلِّمكم أنه من الواجب على المرأة أن تضع غطاءً رأس، هل هي لم تعتبر أن شَعر العذراء هو نفس الغطاء والمجد[2] فوق رأسها؟ فإن كان "قبيحً بالمرأة أن تُقص أو تُحلَق",[3] فهو كذلك بالنسبة للعذراء أيضًا.[4]

بناءً على ذلك، فأولئك[5] اللواتي أُعطي لهن نفس ناموس الطبيعة بالنسبة للرأس،[6] قد فُرض عليهن نفس التعليم بالنسبة للرأس.[7] ونفس التعليم يشمل حتى أولئك العذارى اللواتي يعفيهن كونهن أطفالاً، لأنهن دُعين منذ البداية[8] "إناث".

وباختصار، فإن هذه العادة كانت تراعَى في "إسرائيل"، ولكن حتى لو لم يكن إسرائيل قد راعاها، فإن ناموسنا القوي والكامل سوف يُقِر هذا الأمر الإضافي, وهو: "لنسمح بفرض غطاء الرأس للعذارى أيضًا". لكن لنسمح بحِلٍ منا لهذه المرحلة– أي الطفولة– التي تجهل طبيعة جنسها[9] أن تحافظ على حق البراءة، لأن آدم وحواء عندما داهمتهما المعرفة،[10] قد غطى كلاهما في الحال ما أصبح يعرفه.[11] وعلى

---

[1] (1كو11:14)

[2] في أن تُرخى المرأة شعرها. (1كو11:15)

[3] (1كو11:6)

[4] وكلها أمثلة لتأكيد تَساوى الكل في تنفيذ الوصية.

[5] أي المرأة والعذراء.

[6] أي إرخاء الشعر.

[7] أي تغطية الشعر.

[8] أي منذ ولادتهن.

[9] أي لا يعرفن الا كونهن اطفال.

[10] (تك3:6)

[11] (تك 3: 7،10،11)

كل حالٍ, فأولئك اللواتي تحوَّلت طفولتهن إلى سن البلوغ، كان ينبغي أن تُذكِّرهن مرحلتهن بالواجبات الطبيعية والدينية لهذه المرحلة، لأنهن قد تحولن إلى رتبة "المرأة"، سواء على المستوى المعنوي أو العضوي. ثم تنتهي الفترة التي دُعيت فيها "عذراء" من وقت الزواج، والذي ترى فيه نفسها زوجةً لرجلٍ.

أمَّا العذراء التي قد كرَّست نفسها للرب، فمِن تلك اللحظة تُغيِّر شكل شَعرها وتُحوِّل كل ثيابها إلى ثياب "امرأةٍ". فدعوها إذًا تحافظ على شخصية المرأة كاملةً، مع قيامها بكل شغل العذراء. دعوها تُغطى بالكامل ما تُخفيه – أي شعرها– من أجل الله. هذه هي مُهمتنا, أن نترك ما تفعله نعمة الله فينا لمعرفة الله، إلا إذا كنا نريد أن نأخذ من الإنسان المكافأة التي نرجوها من الله!

ولماذا تكشفين أمام الله ما تُخفينه عن الرجال؟[1] فهل أنت ستكونين محتشمة أمام الناس أكثر مما لو كُنتِ في الكنيسة؟ إن كان بَذلُكِ لذاتِك هو نعمة من الله، وقد أخذتيها، فيقول بولس الرسول: "فإن كنت قد أخذت، فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ؟"[2] لماذا بافتخارِك بنفسِك تحكمين على غيرِك؟[3] وهل بافتخارِك هذا تُشجعين الآخرين على الخير؟! كلَّا، بل حتى أنتِ نفسِك تخاطرين بالخسارة إذا تباهيتِ، بل وتدفعين الآخرين لنفس الهلاك. فما نظن أن نأخذه من الحب المتباهي سوف يَفسد بسهولة.

غَطِّ رأسِك أيتها العذراء، إن كنتِ عذراء، لأنكِ يجب أن تستحي. إن كُنتِ عذراءٍ, تجنبي نظرات العيون الكثيرة. لا تجعلي أحدًا يُعجَب بوجهِك، ولا تجعلي أحدًا يشعُر بزَيفِك، بل أنتِ تفعلين حسنًا باصطناعك لشخصية المتزوجة، وإذا كنتِ تُغطين رأسِك فلن تكوني غاشة، لأنكِ قد تزوجتِ المسيح وسلَّمتي جسدِك له. فالآن

---

[1] أي لماذا تغطين شعرك في الشارع وتكشفيه في الكنيسة؟

[2] (1كو7:4)

[3] لأنهم سيُعثرون بسببِك.

تصرَّفي وفقًا لنظام زوجِك. فإن كان يدعو عرائس غيره للتغطية,[1] فبالطبع سيدعو عروسَه بالأكثر.

لا ينبغي أن يظن أيّ فردٍ[2] أن النظام الذي سار عليه سَلَفُه يجب أن يسقط، فكثيرون رضخوا وأخضعوا ثبات رأيهم لعُرف الآخرين.

حتى لو فرضنا أن العذارى غير مُضطرات لتغطية رؤوسهن، فعلى كل حالٍ، مثل هؤلاء اللواتي يتغطين اختياريًا لا يجب أن نمنعهن. اللواتي أيضًا لا يستطعِن إنكار أنهن عذارى, ومع ذلك يرضين بضميرٍ صالحٍ أن يُفسِدن سُمعتهن.[3]

لذلك بخصوص المخطوبات، أستطيع بكل تأكيدٍ- أكثر من حجمي الضئيل- أن أُصرِّح وأُثبت أنهن ينبغي أن يغُطين رؤوسهن منذ اليوم الذي فيه ارتجفن بمصافحة رجلٍ[4] بمجرد أول لمسةٍ. لأن كل شيءٍ فيهن يكون مُهيأً لمرحلة ما قبل الزواج. فسنُّهن هو سِن النضوج، وجسدهن يتأثر بمشاعر هذا السِن، والروح تتأثر بالمشاعر، والحياء يتأثر بالمصافحة،[5] والرجاء يكون فيما سيحدث في المستقبل، والعقل يتأثر بالإرادة.[6] ويكفينا مثال "رفقة"، التي لما تبينت أن هذا هو خطيبها، غطَّت نفسها بالبرقع، لا لشيءٍ إلا لأجل الزواج ممن عرفت أنه هو خطيبها.[7]

---

[1] أي النساء المتزوجات.

[2] ويمكن أن تُترجَم (أيّ رجل كنسي مُعتبر)

[3] أي بظهورهِن أمام الناس وكأنهن متزوجات (وهو تعبيرٌ صعب).

[4] أي خطيبهن.

[5] حيث جرت العادة في ذاك الزمان أن يُقبِّل الخطيب خطيبته.

[6] أي باختيار شريك الحياة.

[7] (تك 24: 64،65)

الفصل الثالث والعشرون

السجود

وفي أمر السجود أيضًا تخضع الصلاة لعاداتٍ مختلفةٍ من خلال ما يفعله القليل بالامتناع عن السجود في يوم السبت، حيث أن هذا الخلاف بوجهٍ خاص مازالت الكنيسة تفحصه،[1] ولكن الرب سوف يُظهِر نعمته, سواء بخضوع المختلفين, أو بتراجعهم عن رأيهم بدون هجومٍ على الآخرين. مع ذلك, فنحن قد تسلمنا بالضبط أنه في يوم قيامة الرب (يوم الأحد) يجب أن نحترس، ليس فقط من السجود، بل من كل وضعٍ أو خدمةٍ مُقلقة. مؤجِلين حتى أعمالنا, لئلا نُعطي إبليس مكانًا.[2] وكذلك أيضًا في فترة الخماسين، الفترة التي تتميز بنفس طقس الفرح.[3]

لكن مَن هو الذي سيتردد كل يومٍ في أن يطرح نفسه أمام الله، على الأقل في صلاة باكر التي نبدأ بها النهار؟[4] وبالأكثر في أيام الصوم وأيام الاحتراس، حيث لا لا تُقام أيَّة صلاةٍ بدون السجود وبدون باقي علامات الانسحاق، فنحن في هذه الأيام لسنا فقط نُصلي، بل نطلب الغفران، ونقدم ما يُرضى الرب إلهنا.

أمَّا فيما يتعلق بمواعيد الصلاة، فلا يوجد أي شيءٍ مفروضٍ على الإطلاق إلَّا ما هو واضحٌ, بأن (نُصلى كل حين وفى كل مكانٍ).[5]

---

[1] وهذا الأمر قد حُسم تمامًا بعد ذلك. حيث صار المتَّبع هو الامتناع عن الميطانيات أيام السبوت والآحاد طوال السنه, باعتبارها أيام فرحٍ. وهذه الجزئية تؤكد لنا أن كنيستنا الارثوذوكسية هي كنيسة تقليدٍ مستلم منذ القرون الاولى للمسيحية. {المترجم}

[2] (اف27:4)

[3] وهو أيضًا الأمر الذى مازال مُتبعًا.

[4] من الرائع أيضًا ان هذا هو المُتبع الآن في تعليم الكنيسة بالنسبة لميعاد الميطانيات اليومية, حيث يُفَضِّل الكثير من الآباء أن تُعمَل الميطانيات في هذا الميعاد. {المترجم}

[5] (اف18:6) (1تس17:5) (1تى8:2)

الفصل الرابع والعشرون

مكان الصلاة

ولكن كيف نصلي في كل مكانٍ إن كُنا ممنوعين من الصلاة أمام الناس؟[1] إن بولس الرسول يقصد في أي مكانٍ تكون فيه الفرصة أو الضرورة مناسبة، فهذا هو الذي فعله الرسولان،[2] حيث فعلا ذلك عن عمدٍ، وفي مسمعٍ من المسجونين, حين شرعا في الصلاة والتسبيح لله. ولا يُعتَبر هذا ضد الوصية، ولا حتى ما فعله بولس[3] الذي "شكر الله أمام الجميع" في السفينة وفي حضور الكل.

الفصل الخامس والعشرون

أوان الصلاة

أمَّا فيما يتعلق بأوقات الصلاة، فعلى العموم، إن الالتزام بالصلوات الظاهرة[4] في المواعيد المعينة – أي الساعات العامة التي ترمز لفترات النهار، وهي الثالثة والسادسة والتاسعة – لن يكون بلا نفعٍ. هذه التي قد نجد أنها أكثر تقديسًا في الكتاب المقدس من باقي الأوقات. فأول حلولٍ للروح القدس كان على التلاميذ المجتمعين في الساعة الثالثة.[5]

وبطرس في اليوم الذي اختبر فيه رؤية الخليقة المجتمِعة والمعروضة في إناءٍ

---

[1] (مت6:5،6)

[2] بولس وسيلا في (أع25:16)

[3] (أع35:27)

[4] وهى غير الصلاة الداخلية (صلاة القلب) التي يمكن أن نصليها كل الأوقات، وبها ننفذ وصية الصلاة كل حين. والمقصود بالظاهرة هنا الصلوات المحفوظة، أي الليتورجيات وصلوات السواعي. {المترجم}

[5] (أع 2: 1–15)

صغيرٍ، كان قد صعد إلى علية المنزل لأجل الصلاة في وقت الساعة السادسة[1]، وهو نفس الرسول الذي كان ذاهبًا إلى الهيكل مع يوحنا في وقت الساعة التاسعة[2] حينما شفيا الأعرج.

ورغم أن الالتزام بهذه الممارسات يُقام ببساطةٍ بدون أيَّة وصية، إلا أنها تَمنح نعمة عظيمة، وهي ترسيخ فرضٍ مُعين، وهو لفت الانتباه الإجباري للصلاة. كما أنها قد تُجبِرنا على قَطع أعمالنا لتأدية هذا الواجب كقانونٍ.[3] ولهذا نقرأ أن "دانيال" كان يلتزم بقانونه أيضًا،[4] وهذا كان بالتأكيد طِبقًا لنظام اليهود.

وهكذا نحن المديونون للثلاثة "أقانيم"، الآب والابن والروح القدس، يجب علينا على أقل تقديرٍ أن نصلي ما لا يقل عن ثلاث مراتٍ في اليوم، بالإضافة طبعًا لصلواتنا المنتظمة المُقررة بدون أي تنبيه، وقت دخول النهار ووقت دخول الليل.[5] كما أنه أصبح واجبًا على المؤمنين ألَّا يأكلوا ولا يذهبوا للاستحمام قبل أن يُصَّلوا، لأن إنعاش وتغذية الروح يجب أن يكون قبل الجسد. فإن السماويات يجب أن تسبق الأرضيات.

---

[1] (أع9:10)

[2] (أع1:3)

[3] مثلما يُعطى المرشِد قانون صلاة لابنه حتى يعتاد على الصلاة. وحتى إن كانت البداية إلزامية، فإن إقماع الجسد وصية إنجيلية. {المترجم}

[4] (دا10:6)

[5] ربما يقصد صلاة باكر والنوم {المترجم}

الفصل السادس والعشرون

انصراف الإخوة

لا تدَع أي أخٍ يدخل بيتك ينصرف بدون صلاة. لأن الكتاب المقدس يقول: إنك عندما تُلاقى أخاك, فإنك تلاقى الرب إلهك، وبالأخص الغريب،[1] فربما يكون ملاكًا.[2] لكن عندما تتقابل مع إخوةٍ، فلا تجعل المُنعِشات الأرضية[3] تسبق السماوية، حتى لا يُحكَم على إيمانك في الحال، وإلا كيف لك أن تقول بحسب الوصية: "سلام لهذا البيت"[4] إلَّا إذا تبادلت السلام مع الموجودين في البيت؟!

الفصل السابع والعشرون

إضافة مزمورٍ للصلاة.

أمَّا المجتهدون أكثر في الصلاة، فقد اعتادوا على إضافة الـ "هلليلويا"[5] لصلواتهم، والتي في نهايتها يرد المجتمعون قائلين: "هلليلويا". وبالطبع كل الاجتماعات تكون رائعة، لأنها بتمجيدها وتكريمها لله, تهدف بالإجماع إلى تقديم صلاةٍ مزخرفةٍ كذبيحة مختارة لله.[6]

---

[1] (تك 18) (مت 25: 38،40)

[2] (تك18) (عب13:2)

[3] أي الطعام والشراب كواجب ضيافة.

[4] (لو10:5)

[5] قد يكون معناها المزامير عامةً، أو قد يكون المقصود مجموعة معينة من المزامير, والتي تتكرر فيها كلمة هلليلويا. وربما يقصد مزامير الهلليلويا الكبيرة، وهم آخر خمس مزامير في سفر المزامير، ومنهم مزامير(148, 149 , 150) والتي هي تسبحة الهوس الرابع، وهو ما يؤكد عراقة الصلوات القبطية الأرثوذكسية. {المترجم}

[6] (هو14:2)

الفصل الثامن والعشرون

الصلاة هي الذبيحة الروحية.

لأن الصلاة هي الذبيحة الروحية[1] التي أَبطلت الذبائح القديمة. يقول الكتاب: "لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب. أتخمت من محرقات كباشٍ وشحم مُسمناتٍ، بدم عجولٍ وخرفانٍ وتيوسٍ ما أُسرُّ. حينما تأتون لتظهروا أمامي، مَن طلب هذا من أيديكم؟"[2]

هذا إذًا ما يطلبه منا الرب في تعاليم الإنجيل: "ولكن تأتى ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق. لأن الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له. الله روحٌ والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا".[3]

نحن هم الساجدون والكهنة الحقيقيون الذين يُصَلّون بالروح،[4] ويقدمون ذبائح روحية – التي هي الصلاة – كذبيحةٍ لائقة ومقبولة أمام الرب، والتي طلبها وتطلَّع إليها لنفسه بكل تأكيدٍ, ذبيحة مُكرسة من كل القلب، يُغَذِّيها الإيمان، ويرعاها الحق, طاهرة بالكمال، عفيفة نقية، مُكلَلة بالمحبة.

فيجب أن نُحافظ عليها بكثرة الأعمال الصالحة، ونقدمها ما بين المزامير والألحان إلى مذبح الله, لننال كل شيءٍ نطلبه منه.

---

[1] (1بط5:2)

[2] (أش11:1،12)

[3] (يو23:4،24)

[4] (1كو15:14) (أف18:6)

الفصل التاسع والعشرون

قوة الصلاة

فهل يرفض الله الصلاة التي تأتيه من الروح والحق، في حين أنه هو الذي يريدها أن تكون هكذا؟ فكم من مثالٍ لصلواتٍ نقرأها ونسمعها ونؤمن بها لكونها قد اقتدرت في فعلها.

إن صلوات العالم القديم قد حررت بالفعل من النيران،[1] ومن الوحوش،[2] ومن الجوع،[3] رغم أنها لم تأخذ شكلها من المسيح،[4] فكم بالأكثر جدًا تكون الصلاة المسيحية أكثر فاعليةً.

إن هذه الصلاة لا توقف ملاك الندى في وسط النيران،[5] ولا تسد أفواه أُسود، ولا تُعطِي الجياع خبز الشعير،[6] ولا تمنح نعمة عدم الإحساس بأي ألمٍ. لكنها تهِب الاحتمال اللازم للألم والمشاعر والحزن، وتزيد النعمة بقوة الإيمان الذي يُدرِك ما ستناله هذه الصلاة من الرب، وتزيد فهمنا لِما نعانيه من أجل اسم الله.

لكن في الأيام الغابرة, كانت الصلاة تجلب الأوبئة، وتُفرِّق جيوش الأعداء، وتمنع الانتفاع بالمطر. أما الآن، فصلاة البرّ ترفع كل غضب الله، وتطلب الراحة للأعداء، وتتضرع لأجل المُضطهِدين. فما هو العجب في قدرة الصلاة على انتزاع الأمطار من السماء، وهي التي أنزلت يومًا نيرانها؟[7]

---

[1] (دا 3)

[2] (د16)

[3] (1مل18)

[4] مثل الصلاة الربانية.

[5] من تتمة دانيال (دا3:49،50)

[6] (2مل 4: 42-44)

[7] (2مل 25: 10)

إن الصلاة وحدها هي القادرة أن تغلب الله،[1] لكن المسيح أراد لها ألَّا تكون فعالةً فقط ضد الشر، بل وهبها كل قدرتها لأجل الخير. لذا, فهي لا تعرف شيئًا آخر سوى أن تسترد النفوس التي ذهبت في طريق الموت المؤكَّد،[2] وأن تُعطي القوة للضعيف، وتشفي المريض، وتُطهر من الأرواح الشريرة، وتفتح أبواب السجن،[3] وتفك قيود البريء.[4]

كذلك هي تغسل الخطايا، تصُد التجارب، تُنهى الاضطهاد، تُعزى صغيري القلوب، تشجع النشطاء، تحرس المسافرين، تهدئ الأمواج، تلجِّم اللصوص، تُغذى الفقير، تحكم الغني، تقيم الساقط، تسند المتهاوي، وتثبِّت القائم.[5]

إن الصلاة هي سور الإيمان، أسلحتها ونبالها هي ضد العدو الذي يتربص بِنا من كل ناحية، لذا ينبغي لنا ألَّا نسير بدون سلاح (الصلاة). ففي النهار ننتبه وفى الليل نسهر، وبأسلحة الصلاة نحرس راية جيشنا ونستعد لسماع صوت بوق الملائكة وقت الصلاة.[6]

كذلك الملائكة كلهم يصلُّون، وكل المخلوقات أيضًا، البقر ووحوش البرية، تصلي وتحني ركبها، وعند خروجها من أوكارها وزرائبها, فإنها لا تنظر إلى السماء بفمٍ صامتٍ، بل تُخرج أصواتها برعشة ريح زفيرها, كلٌ حسب طريقته.[7]

حتى الطيور أيضًا تنهض من الأعشاش وترتفع نحو السماء، وعِوض الأيدي

---

[1] (تك 32: 24–28) (مت11:12) (لو11:8) (لو 18: 1–8)

[2] أي أن الصلاة يمكنها أن ترد الخاطئ عن طريق ضلاله. {المترجم}

[3] (أع12:10)

[4] (أع12:7)

[5] راجع طلبة القداس الغريغورى {المترجم}

[6] (1كو15:52) (1تس4:16)

[7] أي تصدر أصوات وكأنها تصلى.

تبسط أجنحتها كصليب, وتقول ما يشبه الصلاة.

فهل يوجد ما يبين أهمية الصلاة أكثر من ذلك؟ فإن الرب نفسه صلَّى، وهو الذي له كل المجد والقدرة إلى دهر الدهور.

المعموديَّة

للعلَّامة ترتليان

مُقدِّمة

كُتب هذا النَص في الفترة ما بين عامَي 198م و200م. من الواضح أن الغرض الأساسي من النَص هو الدفاع عن ضرورة المعمودية لأجل الخلاص، ردًا على ما أشاعته امرأة مبتدعة اسمها "كوينتيلّا" بأنه لا يمكن لعقلٍ أن يصدِّق بأن المعمودية التي تتم بالتغطيس في الماء بهذه الطريقة البسيطة، يمكنها أن تَمنح تجديدًا للطبيعة، وغفرانًا للخطايا، وشركةً مع الروح القدس. وقد نَشرت تعاليمها هذه بين بُسطاء المدينة، واستقطبت لها أتباعً يساعدونها في نشر التعليم الخاص بها. مما أثار حفيظة "ترتليان" وغيرته على الإيمان. فكتب للمسيحيين هذه المقالة، مدافعًا عن الإيمان المستقيم، وفاضحًا خطورة هذا التعليم الذي يهدم أساسًا من أساسات العقيدة المسيحية.

يتميز النَص ببساطة الأسلوب, رغم أن ترتليان كان معروفًا بأسلوبه الذي يميل للفلسفة. كما أنه يطرح أسئلةً شائكةً عن المعمودية، ويعطي عنها إجاباتً شافية، سواء من الكتاب المقدس بعهديه، أو من واقع الحياة، بل وحتى من المعتقدات الوثنية نفسها.

يستخدم "ترتليان" بعض الأمثلة من العهد القديم، والتي كانت ترمز للمعمودية أو ما يتعلق بها، مثل: عبور البحر الأحمر، والطوفان، وحمامة "نوح"، وخروج الماء من الصخرة. كما كان أول مَن أشار إلى قصة ملاك "بيت حسدا" المذكورة في العهد الجديد، كرمزٍ للمعمودية.

كذلك أوضح العلَّامة "ترتليان" الفرق بين معمودية يوحنا ومعمودية السيد المسيح. وتطرَّق لمعمودية الدم، ومعمودية الهراطقة، وذَكر بعض الاستعدادات اللازمة للمعمودية، وأمور أخرى.

يبين النَص الكثير من طقوس المعمودية التي كانت موجودة منذ الكنيسة الأولى، ومازالت موجودة حتى الآن، مثل الحصول على سِرّ الميرون بعد المعمودية، والإشبين الخاص بكل مُعَمَّد، وأمور أخرى كثيرة.

يميل "ترتليان" للرأي القائل بأن الروح القدس يحلّ على مياه المعمودية ليقدسها، أمَّا حلول الروح على شخص المُعَمَّد فيتم بسر "الميرون"، وقد أوردنا التعليق على هذا الموضوع بالتفصيل في هوامش النَص, وذكرنا رأى الآباء الأوائل في هذا الموضوع.

في هذا النص يؤكد لنا العلَّامة "ترتليان" أن:

1- المعمودية سرٌّ أساسيٌ لا يمكننا الخلاص بدونه، وسَلَّمه لنا الرب يسوع معتمدًا بنفسه لكي نقتدي به.

"وأما نحن السمك الصغير فننبع مثال سمكتنا (ΙΧΘΥΣ) يسوع المسيح, ونولد في الماء. ولا نجد الأمان في أيَّة طريقةٍ أخرى سوى بالدوام باستمرار في الماء." (الفصل الأول)

2- يعقوب أبو الآباء وَضع يديه على افرايم ومنسى إشارةً للصليب.

"حينما بارك يعقوب حفيديه ابنَيّ يوسف – افرايم ومَنَسَّى – وَضع يديه عليهما بشكلٍ معكوسٍ. فبالتأكيد أن وضعِهما فوق بعضهما بهذا الشكل المخالف – كشبه ما سوف تحدث للمسيح – كان يُنبئ بمنح البركة المستقبلية التي للمسيح" (الفصل الثامن)

3- قِصة الفُلك والحمامة كانت رمزًا واضحًا للمعمودية الكنسية.

"لأنه كما أن الشر القديم قد تطهر بعد مياه الطوفان (مثلما تطهر العالم بعد المعمودية) وكانت الحمامة هي المبشّر الذي أعلن هدوء الغضب السماوي، حينما أُرسِلَت من الفُلك وعادت بغصن الزيتون... فهكذا بنفس القانون السماوي الذي تم على الأرض (التي هي جسدنا) حينما برزَت من المياه بعد خطاياها القديمة، طارت حمامة الروح القدس مُحضِرة لنا سلام الله، مرسَلة من السماوات، حيث أن الكنيسة هي مثال الفُلك." (الفصل الثامن)

4- عبور البحر الأحمر كان رمزًا للمعمودية.

"عندما تحرر الشعب وصار بلا قيودٍ، وهرب من بطش مَلك مصر، بالعبور خلال الماء – وهذا هو نفسه الماء الذي أهلك المَلك وكل قواته – فبالتأكيد ما من رمزٍ من رموز سِر المعمودية قد تحقق بشكلٍ أوضحٍ من ذلك. إن الشعوب تتحرر من العالم بواسطة الماء، تاركين الشيطان – الطاغوت القديم – بالتمام غارقًا في الماء." (الفصل التاسع)

5- تحويل الماء المُر إلى حلو هو أيضًا رمزًا للمعمودية.

"عندما أُعيد الماء من المرارة إلى حُسن عذوبته الأصلية بشجرة موسى، فهذه الشجرة كانت المسيح الذي استعاد لنفسه الينابيع التي كانت لها طبيعة مُرّة ومسمومة في السابق، إلى مياه صحية تمامًا، والتي هي مياه المعمودية." (الفصل التاسع)

6- سفينة التلاميذ التي ضربتها الأمواج كانت رمزًا للكنيسة.

"فتلك السفينة الصغيرة قدَّمت صورةً (للكنيسة) المضطربة, في (البحر) الذي هو العالم, (بالأمواج) التي هي الاضطهادات والتجارب، والرب صابرٌ كما لو كان نائمًا، حتى يَنهض في النهاية، عن طريق صلوات القديسين، وينتهر العالم، ويعيد الهدوء لخاصته." (الفصل الثاني عشر)

7- الإيمان بدون الحصول على المعمودية غير كافٍ للخلاص.

"وبالمقارنة بهذا القانون القائل بالتحديد: "إن كان أحدٌ لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله" فقد رُبِطَ الإيمان بضرورة المعمودية. وبناءً عليه, كل من صار مؤمنًا بعد ذلك، إعتاد أن يعتمد." (الفصل الثالث عشر)

8- احترام الرُتب الكنسية أمرٌ ضروريٌ. "لأجل كرامة الكنيسة التي إذا حُفظَت، حُفظ السلام." (الفصل السابع عشر)

9- المعمودية كانت تتم قديمًا في عيد القيامة والخماسين. (الفصل التاسع عشر)

المترجم

المعمودية

الفصل الأول

مقدِّمة عن الغرض من المقالة.

يا لبهجتنا بسرِّ الماء المقدَّس، الذي فيه نتحرر وندخل إلى الحياة الأبدية, بالاغتسال من خطايا ظُلمتنا القديمة.

إن أيَّة مقالة ستُكتب عن هذا الموضوع لن تكون بغير نفعٍ. إنها ستُعلِّم، ليس فقط المبتدئين حديثًا في الإيمان، بل وأيضًا الذين يكتفون بإيمانٍ سطحيٍ دون أن يبحثوا في أسباب التقاليد[1] بحثًا كاملاً، ويحملون بسبب الجهل ما يمكن أن يكون إيمانًا بغير ثقةٍ.

فكانت النتيجة أن أفعى البدعة الشيطانية قد أَلَمَّت مؤخَّرًا بهذا الحي، وجَرفت عددًا ضخمًا بعقيدتها السامة، جاعلةً هدفها الأول هو هدم المعمودية.[2] لكن عمومًا، من الواضح تمامًا وِفقًا للطبيعة أن الأفاعي والحيات والباساليق[3] نفسها ليس لها تأثيرٌ إلا في الأماكن الجافة عديمة المياه.[4]

---

[1] أي الطقوس وأسرار الكنيسة.

[2] حيث ظهرت امرأة مبتدعة اسمها "كوينتيلّا" (Quintilla) من قرطاج، أضلَّت الكثيرين بتعاليمها عن أن الغسل الجسدي بالمياه لا يمكن أن يُطهِّر النفس ويهب الخلاص – قاصدة هدم المعمودية – فتصدى لها "ترتليان" بهذه المقالة.

[3] ومفردها "باسيليسق" (basilisk) وهي أفعى خرافية.

[4] أي أنها لا تحب أي شيء فيه ماء، ولذا فهي لن تحب المعمودية.

أمَّا نحن السمك الصغير فنتبع مثال سمكتنا (ΙΧΘΥΣ)[1] يسوع المسيح ونولد في الماء،[2] ولا نجد الأمان في أيَّ طريقٍ آخر سوى بالدوام باستمرارٍ في الماء.[3]

لذا، فإن هذه المخلوقة الفظيعة، والتي ليس لها إذن أن تُعلِّم حتى بالعقيدة الصحيحة،[4] قد عَرفت جيدًا بالتمام كيف تقتل السمك الصغير، بإخراجه من الماء.

الفصل الثاني

البساطة الشديدة لأسلوب الله في العمل، هي حجر العثرة للعقل المادي.

كم هي شديدةٌ قوة الضلال حتى تزعزع الإيمان هكذا، أو تمنع قبوله تمامًا، حتى أنها تطعن في المبادئ المؤكَّدة التي يتألف منها الإيمان!

لا يوجد شيءٌ على الإطلاق يجعل عقول الناس أشد قسوة أكثر مِن بساطة الأعمال المقدَّسة المنظورة في فعلها،[5] حينما تُقارَن بمفعولها الأكبر الموعود به.[6] فلذلك بنفس الوضع، أي بالبساطة الشديدة, وبدون بهرجةٍ, وبدون أي شيءٍ غير مألوفٍ يمكن ملاحظته في التجهيز، وبدون تكلفةٍ، يغطس الإنسان أخيرًا في الماء، بمصاحبة بعض الكلمات القليلة، ويُغتسَل، ثم يصعد ثانية، ليس لأجل أن يكون

[1] (ΙΧΘΥΣ) هي السمكة في اللغة اليونانية، والتي اتخذها المسيحيون الأوائل شعارًا لهم، واستخدموا هذا اللفظ للتعرف على بعضهم، وبالأخص في أوقات الاضطهاد، لأن حروفها اختصار لاسم المسيح وصفاته، حيث أنها حروف عبارة "إيسوس إخريستوس ثيئو يوس سوتير" (إختيس), أي يسوع المسيح ابن الله المخلص (ΙΗΣΟΥΣ ΧΡΙΣΤΟΣ ΘΗΟΥ ΥΙΟΣ ΣΩΤΗΡ).

[2] (يو3: 5)

[3] مثلما قال الأنبا "أنطونيوس" لأبنائه الرهبان عن الراهب الذي يترك ديره لفترة طويلة. {المترجم}

[4] (1تي2: 11، 12)

[5] أي الطريقة البسيطة لممارسة الطقوس، مثل المعمودية، حيث أننا نرى بأعيننا المُعمَّد وهو يغطس في جرن الماء.

[6] أي النعمة غير المنظورة التي نحصل عليها بحصولنا على السر المقدس.

أكثر نظافةً، لكن حصوله على الأبدية يُعتبر هو النتيجة الغير ممكن تصديقها بالأكثر. وفي المقابل، إن لم تكن الاحتفالات والأسرار الوثنية تَبني سُمعتها ومكانتها على أساس البهرجة والإعداد والتكلفة، فاعتبروني شخصًا مُخادعًا.

يا لتعاسة عدم الإيمان الذي ينكِر على الله ملكيته وبساطته وقوته تمامًا! فماذا إذًا؟ أليس هو أيضًا أمرًا مدهِشًا ضرورة التطهير من الموت بالاستحمام[1]؟! لكن إذا كانت الدهشة هي سبب عدم الإيمان، فالمفترَض بالأَولى أن يكون هذا سببًا أدعى للإيمان. فما هي النوعية التي يجب أن تكون عليها الأعمال الإلهية, إلا أن تكون أعجب من أي أمرٍ عجيبٍ؟ نحن أنفسنا نتعجب أيضًا، لكن ذلك لكوننا نؤمن. أمَّا عدم الإيمان فيتعجب، لكن من الناحية الأخرى لا يؤمن. إنه يتعجب من بساطة الأعمال كما لو كانت باطلةً، ويتعجب من النتائج العظيمة كما لو كانت مستحيلةً.[2]

وبافتراض أنها هكذا كما تظنون،[3] فالتصريح الإلهي يكفي للرد على كل هذه النقاط، والذي سبق فقال: "بل اختار الله جُهَّال العالم ليُخزي الحكماء".[4] وقال أيضًا: أيضًا: "غير المستطاع عند الناس مستطاعٌ عند الله".[5] فإن كان الله حكيمًا ومقتدرًا – الأمر الذي لا ينكره حتى الذين أغفلوه – فهذا سببٌ أدعى لأن يجعل الأغراض المادية التي يستخدمها في عمله, ضد العقل والقوة – أي بالجهالة والاستحالة – حيث أن كل عملٍ صالحٍ[6] يَستلهم مبادئه من الأمور التي تسببت في وجوده.[7]

---

[1] حيث أن المعمودية هي ميلادٌ جديدٌ يُخلِّص الإنسان من موتٍ قديمٍ (الموت الذي هو الانفصال عن الله، وفساد الطبيعة).

[2] المقصود بالنتائج العظيمة هو العمل الخفي للسر المقدس.

[3] أيها الغير مؤمنين.

[4] (1كو1: 27)

[5] (لو18: 27)

[6] مثل المعمودية.

[7] أي البساطة الشديدة، والتي هي ضد العقل والقوة من وجهة نظر العقل البشري.{المترجم}

الفصل الثالث

1- لماذا أُختير الماء كوسيلة للعملية الإلهية؟

2- ظهور المياه أولاً في عملية الخَلق.

رغم درايتنا بهذا التصريح[1] كفرضٍ حتميٍ، فمع ذلك سنبدأ في مناقشة هذا السؤال الذي يقول: "كم هو أمرٌ ساذجٌ ومستحيلٌ أن نولد ثانيةً عن طريق الماء، وما هو الذي يجعل هذا العنصر المادي يستحق مكانةً بهذه الكرامة العالية؟" أعتقد أننا يجب أن نبحث في أهمية هذه المادة السائلة.

إن أهميتها على كل حالٍ معروفةٌ بشكلٍ كبيرٍ منذ البدء، لأن الماء هو واحدٌ من هذه الأشياء التي كانت خامدةً في وضعٍ عديم الشكل قبل أن يُفرَش أثاث العالم.[2] يقول الكتاب المقدس: "في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خرِبةً وخاليةً، وعلى وجه الغمر ظلمةٌ، وروح الله يرف على وجه المياه".[3]

إن أول شيءٍ يجب أن تُقدِّره أيها الإنسان هو عمر المياه، لأنها عنصرٌ قديمٌ جدًا. وثانيًا: كرامتها، لأنها كانت عرش الروح القدس،[4] والمادة المُرضِية له أكثر من كل العناصر الأخرى الموجودة آنذاك. ففي الوقت الذي كان فيه الظلام كاملاً لأقصى درجةٍ، بلا منظرٍ، وبدون زينة النجوم، وكان الغمر مظلمًا والأرض خربةً والسماء خاليةً. كانت المياه كاملةً دائمًا، ومبهجةً، وعنصرًا ماديً بسيطًا ونقيًا بطبيعته، قدَّم لله مركبةً تليق به.[5]

---

[1] الذي هو الآيتان السابقتان.

[2] حيث أنها المادة الوحيدة التي ذُكرت في أول آية في سفر التكوين، ومن الواضح أنها كانت مُستقرة هادئة لأن روح الله كان يرف على وجهها. وكانت تغمر الأرض تمامًا بدون شكلٍ محددٍ من الأشكال التي صارت عليها فيما بعد، كالبحار والأنهار والمحيطات وغيرها. {المترجم}

[3] (تك1: 1، 2)

[4] (تك1: 2)

[5] حيث كان يرف عليها الروح القدس وكأنه اختارها موضع لراحته.

وماذا عن حقيقة أن المياه كانت, بطريقة ما, هي القوة المُنظِّمة التي نَظم بها الله العالم منذ ذلك الوقت وحتى الأن؟[1] حتى أن الله قد عَلَّق جَلَد السماء في المنتصف عن طريق تقسيم المياه،[2] وأتمَّ ظهور اليابسة بفصل المياه.[3] وبعد أن تم تنظيم عناصر العالم في ذاك الوقت، وأُعطي العالم لمَن يسكنه، كانت المياه هي أول من تلَقَّى أمرًا: "لتفِض المياه زحافاتً ذات نفسٍ حية"،[4] وكان الماء أول مَن قَدَّم كائنًا حيًا. لذلك، ليس هو أمرًا عجيبًا أن تعرف المياه كيف تعطي حياةً في المعمودية.[5]

ثم، ألم تتم عملية خَلق الإنسان نفسه بمساعدة المياه؟ فالمادة المناسبة الموجودة على الأرض لم تكن صالحةً لتأدية الغرض, لو لم تكن قد صارت مبلَّلة ورطبة. فقبل أن تنفصل المياه إلى أماكنها في اليوم الرابع، كانت قد ليَّنَت الأرض إلى قوامٍ طينيٍ[6] بما تبَقَّى بها من رطوبةٍ.

وأنا إذا بدأت من الآن، واستمريت في سرد دلائل أهمية هذه المادة عمومًا باستفاضةٍ أكثر، والتي يمكنني أن أقدِّمها لأُبيِّن كم هي عظيمةٌ في قوتها وفضلها، وكم من آلاتٍ بارعة ووظائف ووسائل مفيدة قدمَتها للعالم، فإنني أخشى أن أبدو وكأنني قد جمعت مزايا الماء، أكثر من كلامي عن أسباب المعمودية.[7] رغم أنه يتوجب عليّ أن أُعلِّم كل شيءٍ عن ذلك بتدقيقٍ أكثر، فإنه لا يوجد شكٌ في أن الله قد جعل العنصر المادي الذي أعدَّه من بين مخلوقاته وأعماله من أولها لآخرها،

---

[1] كالمطر والمد والجزر والفيضان والثلج والضباب وغيرها. {المترجم}

[2] (تك1: 6-8)

[3] (تك1: 9)

[4] (تك1: 20)

[5] تأمل في منتهى الروعة.

[6] راجع قصة المولود أعمى (يو9: 1-41). {المترجم}

[7] أي الغرض الأساسي من المقالة.

يطيعه أيضًا في السرِّ المقدس الخاص به. كي يكون العنصر المادي الذي يؤَثِّر في الحياة الأرضية، هو أيضًا وكيلاً لِما في السماء.[1]

الفصل الرابع

1- الرفرفة الأولى لروح الله على المياه كانت رمزًا للمعمودية.

2- المادة المائية عمومًا صَنعت قناةً للتقديس.

3- التشابه ما بين الرموز الخارجية والنعمة الداخلية.

مبدئيًا، يكفي ما قيل عن النقاط التي بها نَفهم المَنشأ الأساسي للمعمودية – والتي[2] يُفترَض أنها كانت حتى ذلك الحين إشارةً مُسبَّقةً إلى المعمودية بشكلٍ ملحوظٍ – وهو أن روح الله الذي كان يرف على وجه المياه منذ البدء، سوف يستمر مقيمًا فوق مياه المعمودية. بالتأكيد الشيء المُقدَّس يرِف على ما هو مُقدَّس، والمرَفرَف عليه يأخذ القداسة من المُرَفرِف أيضًا. ففي جميع الأحوال، لابد أن تحصل المادة السفلية على صفة الشيء المُطِل عليها, وفي المعظم يتكيف الشيء المادي على ما هو روحي بسبب رقة طبيعة الروحي، التي بسببها يَخترق ويتسلل. فطبيعة المياه تُقدَس بالقدوس، وتحمل بذلك صورة التقديس في ذاتها.

لا تتركوا أحدًا يقول: "إن كان الأمر هكذا، فهل نحن نصلي ونعتمد بنفس المياه التي كانت موجودة منذ البدء؟" بالطبع ليس بتلك المياه عينها، لكنها بالتأكيد من نفس النوع، بالرغم من تعدد أشكال المياه. فإن ما يخُص النوع سيظهر بالمِثل في الأشكال المختلفة منه، وبالتالي ليس هناك فرقٌ إن كان الإنسان يعتمد في بحرٍ أو بحيرة، في نهرٍ أو نبعٍ، في بِركة أو في حوض، ولا يوجد أي تمايزٍ بين مَن عمَّدهم "يوحنا" (المعمدان) في نهر الأردن،[3] ومَن عمَّدهم "بطرس" (الرسول) في

[1] حيث صارت المياه أيضًا وسيطًا للنعمة السماوية. {المترجم}

[2] عائدة على النقاط.

[3] (مت3: 6)

بحيرة طبرية.[1] إلا إذا كان أيضًا الخَصي الذي عمده فيلبس[2] في الماء الذي صادفهما – في وسط رحلاته – قد نال خلاصًا أكثر أو أقل من الآخرين! إذًا، بالنظر إلى ميزة قِدَم أصل المياه، فإن كل أشكالها، بعد التضرع إلى الله، تُقدَّس,[3] وتحصل على قوة التقديس المقدَّسة. لأن الروح يأتي في الحال من السماء، ويستقر على المياه ويُقدِّسها بنفسه. وهكذا بمجرد تقديسها، تتشرب قوة التقديس في الحال.

ولو قُلنا إنه مِن المُفترَض أن يكون التشابه متناسِبًا مع بساطة العمل، فبما أننا قد تدنسنا بالخطايا, كما لو كانت أقذارًا, فيجب علينا أن نتطهر من هذه البقع بالمياه. لكن بما أن الخطايا لا تظهر في الجسد – نظرًا لأنه لا يوجد أحدٌ تَظهر على جِلده بقعةٌ مِن الوثنية أو مِن الزنا أو مِن الغش– فهذا النوع من الأشخاص هو نجِسٌ بالروح التي هي منبع الخطية،[4] لأن الروح هي السيد, والجسد هو العبد. ومع ذلك، فقد اتفقا على الاشتراك في الخطأ. الروح بالقيادة, والجسد بالتبعية.

لذلك، بعد أن تحصل المياه على نوعٍ ما من القوة العلاجية – في وجود الملاك – تُغسَل الروح بالجسد في المياه، ويتطهر الجسد روحيًا بالمِثل.

[1] (يو 4: 1، 2) من المفترض أن يكون هذا هو المكان الذي كان يعمد فيه التلاميذ الشعب. {المترجم}

[2] (أع8: 26–40)

[3] أي بتلاوة صلوات السر المقدس على يد الكاهن.

[4] يقصد القلب والفكر.

الفصل الخامس

1- استخدام الوثنيين للماء.

2- ملاك[1] بِركة بيت حسدا.[2]

لكن هناك مَن يقول: "حسنًا، لكن الأمم الذين هم بعيدون تمامًا عن فهم القُوى الروحية، ينسبون لأوثانهم الصبغة بالماء,[3] والتي لها نفس تأثير المعمودية"!

إنهم يخدعون أنفسهم بمياه عقيمة،[4] لأن الغسل هو القناة التي مِن خلالها قدَّموا للمجتمع بعض طقوسهم المقدَّسة سيئة السمعة عن "إيزيس",[5] أو "مِثرا".[6]

إن الآلهة نفسها تفتخر بالاغتسال، بل ويُطهِّرون البيوت الريفية والمنازل والمعابد وكل المدن، بحَمل الماء ورَشِّه في كل مكانٍ. على كل حال، فإن الوثنيين يعتمدون في الألعاب "الأبولّونية"[7] و"البيلوزية"،[8] ويزعمون أن ذلك يجددهم، ويعفو عن العقوبات التي يستحقونها عن كل يمينٍ كاذبٍ.

وأيضًا كانت العادة بين القدماء أن يذهب كل مَن لوَّث نفسه بجريمة قتلٍ, طالبًا مياه التطهير. فإن كانت طبيعة الماء أنه مادةٌ مناسبةٌ للتطهير، حتى أنه يدفع الناس للاقتناع بإيمانٍ بأن الاغتسال به هو فالٌ للتطهير، فكم بالأحرى يقدِّم الماء

---

[1] العلَّامة "ترتليان" هو أول من استخدم هذه القصة كتشبيه للمعمودية، ثم تبعه بعد ذلك "ق. غريغوريوس النزينزي"، و"ق. امبروسيوس"، و"ق. يوحنا ذهبي الفم"، و"ق. ديديموس الضرير". {المترجم}

[2] بعض الترجمات تسميها بركة بيت صيدا.

[3] أي المعمودية، فكلمة (Baptist) معناها الصابغ, وفي القبطية (**Ⲃⲁⲡⲧⲓⲥⲧⲏⲥ**). {المترجم}

[4] تفتقد لوجود الروح القدس وما يعطيه من نعمة.

[5] إلاهة مصرية قصتها حدثت عند مياه نهر النيل. {المترجم}

[6] إله الشمس عند الفرس. {المترجم}

[7] الخاصة بالإله "أبولون".

[8] نسبة إلى الإله "عوليس" (Eleusis) وهو معبود أثينا القديمة.

هذه الخدمة بسلطان الله الذي صنع طبيعته! وإذا كان الناس يعتقدون أن الماء قد وُهِب قوةً شافيةً بطريقةٍ دينيةٍ، فهل هناك دينٌ أكثر فاعليةً من دين الله الحي؟

إن الحقيقة المُسلَّم بها هي أننا نُدرِك غيرة الشيطان لمنافسة ما يخص الله، وذلك عندما نجده يمارس المعمودية في أعماله أيضًا. فهل هناك أي وجه شبه؟ هل النجس يُطهِّر؟! هل المُهلِك يحرِّر؟! هل المُدان يُعطِي الحِل؟! إنه بالتأكيد سوف يدمِّر عمله إذا محى الخطايا التي سبق وأغرى الناس بها بنفسه!

لقد سَجلت هذه الملاحظات لأجل البرهان ضد مَن يرفضون الإيمان, لأنهم إن لم يثقوا بالأمور الإلهية، فسيثقون بالتشابهات المزيَّفة لمُنافِس الله.

هناك حالاتٌ أخرى أيضًا تَصنع فيها الأرواح النجسة بدون تقديسٍ، ما صنعه روح الله في بداية التكوين بتشابهٍ زائفٍ. أنا شاهدٌ على كل الينابيع المشبوهة، والجداول غير المعروفة، وأحواض الحمامات، والقنوات الموجودة في المنازل الخاصة، والصهاريج والآبار, هذه التي لها خاصية "الاختطاف الروحي" بقوة الأرواح الخبيثة. فإن الرجال الذين أغرقَتهم المياه، أو أصابهم الجنون أو الخوف، يسمونهم "الممسوسين".[1]

لماذا نورد هذه الأمثلة؟ لكي لا يظن أحدٌ أنه أمرٌ يصعب تصديقه إثبات أن ملاك الله المقدَّس قد حضر عند المياه، وحركها لأجل خلاص الإنسان، في حين أن ملاك الشر يملك الكثير من الأعمال النجسة التي تُصنع بنفس المادة لأجل هلاك الإنسان.

وإن كانت تبدو كبدعةٍ أن يَحضر ملاكٌ عند المياه، فهناك مثالٌ لذلك سبق أن حدث, حيث اعتاد ملاكٌ أن ينزل ويحرك مياه البِركة الموجودة في بيت حسدا،[2] وهؤلاء الذين كانوا يعانون من أمراضٍ صحية قد اعتادوا أن يراقبونه، فكان أول

---

[1] أي الذين مستهم جِنِّية مسحورة, أو عروس البحر، مثلما يقول البسطاء: (مخاوى جنية تحت الأرض), وكلها خرافات وليست إلا مَس شيطاني. {المترجم}

[2] (يو5: 1-9)

شخصٍ ينزل إلى المياه, لا يَعُد يشكو من المرض. وهذا الشكل من الشفاء الجسدي كان نبوءةً عن الشفاء الروحي. فبحسب القاعدة، الأمور الجسدية ترمز مسبقًا إلى الأمور الروحية.[1]

وهكذا، فحينما ارتقت نعمة الله إلى أعلى المستويات بين الناس،[2] ارتقى الروح بكفاءة الماء والملاك.[3] فاللذان اعتادا أن يُعالِجا عيوب الجسد، الآن يشفيان الروح. اللذان اعتادا على عمل خلاصٍ زمني، الآن يُجدِّدان للأبد. اللذان حررا من المرض مرة واحدة في السنة،[4] الآن يُخلِّصان الشعوب يوميًا. لقد بَطُل الموت بالتطهير من الخطايا. فبمحو الذنب، تُمحى العقوبة بالتأكيد.

لذلك سيعود الإنسان إلى مثال الله،[5] لأنه كان يُطابِق صورة الله في البدء - يُطابِق صورته من جهة الصفات، ومِثاله من جهة الأبدية - لأنه سوف يحصل ثانيةً على روح الله الذي أُعطي له سابقًا،[6] ثم فقده الإنسان بسبب الخطية.[7]

---

[1] (1كو15: 46)

[2] (يو1: 16، 17) "نعمة فوق نعمة".

[3] حيث أصبح للماء القدرة على شفاء الروح, بعمل الروح القدس الذي صار عوضًا عن الملاك. {المترجم}

[4] رغم عدم ذكر ميعادٍ ثابتٍ لتحريك الماء بواسطة الملاك في الكتاب المقدس، إلا أن بعض الآباء قالوا إنه كان يأتي ثلاث مراتٍ في السنة، أي في الأعياد اليهودية الكبرى. والبعض الآخر كان يرى أنه يأتي مرة واحدة في السنة، مثل "العلَّامة ترتليان"، و"ق. امبروسيوس"، و"ق. ديديموس" الضرير. {المترجم}.

[5] (تك1: 26)

[6] وهو هنا يخلط بين نَسمة الحياة التي أعطت الإنسان الحياة (تك 2: 7)، ونعمة سُكنى الروح القدُس التي لم نحصل عليها إلا في العهد الجديد. {المترجم}

[7] أي سيحصل على النقاوة التي لروح الله، والتي فقدها الإنسان بمخالفته للوصية.

الفصل السادس

1- الملاك كان ينذر بما سيعمله الروح القدس فيما بعد.

2- المعنى الذي يحتويه طقس المعمودية.

ونحن لا نحصل على الروح القدس داخل المياه،[1] لكننا داخل المياه نتطهر ونتهيأ

[1] لقد أثار اللاهوتيون على مر العصور هذا السؤال: هل الروح القدس في حلوله في المعمودية يحل على المياه ليقدسها ويهيئ قلب المُعمَد لاستقبال الروح القدس دون أن يحل فيه، أم أنه يحِل في سرّ الميرون تكميلاً لسُكنى الروح القدس في الإنسان، بعد أن مُنِح له قبلاً في المعمودية؟ ويؤكد اللاهوتيون في الشرق والغرب أن وضع إجابة محددة لمثل هذا التساؤل هو أمرٌ صعبٌ للغاية، لأن الكتاب المقدس وأقوال الآباء قد جاء فيهما الحديث عن المعمودية بشكلٍ غالبًا ما يعني المعنى الشامل، والذي يضم وضع الأيدي (الذي أصبح لاحقًا هو المسح بزيت الميرون). وهناك نصوصٌ إنجيلية نرى فيها تمييزًا واضحًا بين العماد باسم الرب يسوع، وحلول الروح القدس بوضع اليد (أع8: 14-17) (أع6:19)، وهذا ما يؤكده "ق. أوغسطينوس"، حيث يرى أن المعمودية تهيئنا لسكنى الروح فينا. ويرى "باسيوس" أسقف برشلونة (القرن الرابع)، و"ملشيادس" أسقف روما (القرن الرابع)، أن المعمودية هي غسيل للخطايا، والميرون هو انسكاب للروح القدس في الإنسان.

بينما يرى بعض اللاهوتيين أن المُعمَّد، بنزوله لمياه المعمودية, يتقبل الدفن مع المسيح, فيخلع الإنسان العتيق. وفي صعوده يتقبل قوة القيامة والحياة الجديدة، فيتهيأ المُعمَّد لقبول الروح القدس. (حيث يقول "ق. يوحنا ذهبي الفم": إن الروح القدس يحل على ماء المعمودية ليمنحه قوة الدفن والقيامة والاتحاد بالمسيح، لكن حلول الروح القدس للاتحاد بشخص المُعمَّد يَكمل بسرّ الميرون، الذي يُسمَّى أيضًا (سر التثبيت، وسر موهبة الروح القدس) أي أن حلول الروح القدس يكون قاصرًا= =على المياه, وليس لأجل السُكنى في المعمَّد، إنما يعمل فيه ويهيئه لسكناه الدائم. ويؤكدون نظريتهم هذه من نزول الروح القدس على السيد المسيح في شكل حمامة بعد المعمودية مباشرةً وليس اثناءها، ومِن عمل التلاميذ أيضًا فيما بعد.

وهناك من يرى أن الروح القدس يحل أيضًا على المُعمَّد أثناء المعمودية، مثل "العلَّامة أوريجانوس"، "ق. أثناسيوس"، "ق. كيرلس الأورشليمي"، "مار يعقوب السروجي". حيث يرون أن عطية قبول الروح القدس تتم في المعمودية أيضًا، ويؤكدون هذا بدلائلٍ كتابية تبين قبول عطية الروح القدس في سر المعمودية، ومنها قول بطرس الرسول: "توبوا، وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا، فتقبلوا عطية الروح القدس" (أع2: 38)، وأيضًا قول بولس الرسول:

للروح القدس، في وجود الملاك[1] كشاهدٍ.[2] وقد كان "يوحنا" السابق للرب، والمُعِد لطُرقه،[3] هو المثال لذلك. وهكذا أيضًا الملاك،الشاهد على المعمودية، يجعل السُبل مستقيمةً[4] للروح القدس–الذي هو على وشك الحلول علينا–[5] بالتطهير من الخطايا. وهو الأمر الذي نحصل عليه بالإيمان المختوم باسم الآب والابن والروح القدس.

لأنه إن كان "على فم شاهدَين أو ثلاثة تقوم كل كلمة"–[6] حيث أننا بنوال البَركة نحصل على شهادة الثلاثة[7] على إيماننا، والذين هم الضامنون أيضًا لخلاصنا– فكم بالحري تكون شهادة الثلاثة "أقانيم" الإلهية كافية كذلك لضمان رجائنا.

ثم بعد التعهد وإقرار الإيمان، وبعد الوعد بالخلاص بواسطة الثلاثة شهود، لابد من ذِكر شيءٍ مهمٍ، ألا وهو الكنيسة. فحيثما اجتمع ثلاثة توجد الكنيسة، لأن الكنيسة هي اجتماعٌ لثلاثة.[8]

"لأننا جميعنا بروحٍ واحدٍ أيضًا اعتمدنا........... وجميعنا سُقينا روحًا واحدًا" (1كو12: 13). وأمَّا "العلَّامة ترتليان"، "ق. كبريانوس"، "ق. أوغسطينوس" فيرون أن الروح القدس يحل على المُعمَّد بعد الخروج من جرن المعمودية. راجع كتاب (الروح القدس بين الميلاد الجديد والتجديد المستمر) للقمص "**تادرس يعقوب ملطي**". {المترجم}

[1] يقصد ملاك السر الذي هو خادم للسر, كمثل الكاهن الذي يصلي أثناء حلول الروح القدس، وليس كمُقدِّسٍ للمياه. {المترجم}.

[2] (جا5: 6)

[3] (لو1: 76)

[4] (أش11: 3)، (مت3: 3)

[5] بعد الخروج من جرن المعمودية ونوال مسحة الميرون.

[6] (2كو13: 1)، (مت18: 6)، (تث19: 5)

[7] أي الأقانيم الثلاثة.

[8] (مت18: 20) وربما كان يقصد اجتماع ثلاثة باسم الله، وهم الكاهن والمُعمَّد والإشبين، لأجل إتمام سر المعمودية، والوعد الإلهي أن الله سيكون في وسطهم. {المترجم}

الفصل السابع

المِسحة

وبعد هذا – أي بعد الخروج من جرن المعمودية – نُدهَن بالكُلّية بمِسحةٍ مباركةٍ،[1] وهذه الممارسة مأخوذة من طقسٍ قديمٍ، حيث كانت العادة أن يُمسَح الرجال المُقبِلون على الكهنوت بزيتٍ من قرنٍ، مُنذ أن مَسح موسى هارون.[2] لذلك دُعي هارون "الممسوح"[3] من تعبير "المسح بالزيت المقدس"، أي "المِسحة" التي حينما تمت بالروح، قدَّمت اسمًا يليق بالرب. لأنه مُسح من الآب بالروح، كما هو مكتوبٌ في سفر أعمال الرسل: "لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذي مسحته... أمم وشعوب إسرائيل".[4]

بالنسبة لنا تكون المسحة جسدية، لكن المنفعة روحية.[5] وبهذه الطريقة نفسها تتم المعمودية، حيث تكون الطريقة جسدية بالغطس في الماء، لكن الفاعلية تكون روحية، لأننا بها نتحرر من الخطايا.

---

[1] أي ننال سر الميرون الذي هو سر حلول الروح القدس، حيث يُدهَن جسد المُعمَّد في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بـ 36 رشمة لتقديس الجسد كله. {المترجم}

[2] (خر30:30)، (لا8: 12)، (مز133: 2)

[3] أو مسيح، ومنها أُطلِق على المخلص لقب "المسيح"

[4] (أع4: 27)، (أع10: 38)

[5] يقول "ق. غريغوريوس النزينزي": "لأننا خُلِقنا من جسدٍ ونفسٍ، الأول منظورٌ والثاني غير منظورٍ. فهكذا جاء الغسيل في المعمودية أيضًا بعملٍ منظورٍ وعملٍ غير منظورٍ، بالماء والروح. فعمل الماء يستقبله الجسد بحسب المنظور، وعمل الروح يشترك معه بطريقةٍ غير منظورةٍ, بعيدًا عن الجسد". {المترجم}

الفصل الثامن

1- وضع اليد.

2- الطوفان والحمامة.

ثم توضَع اليد علينا لمنح البركة، ولاستحضار ودعوة الروح القدس. لكن, ألا يستطيع الله أن يصنع بواسطة أيادٍ طاهرة,[1] تعديلاً روحيًا ساميًا لمَن خلقه، بينما تستطيع مهارة البشر أن تستدعي إنسانًا إلى الماء، وتضع اليد فوقه لأجل تحفيز اتحاده هو والماء, مع روحٍ آخرٍ نقيٍ بلا عيب،[2] ليصبحوا كيانًا واحدًا[3]؟!**[4]**

لكن هذا الأمر كالمثال السابق،[5] مأخوذٌ من الطقس المقدَّس القديم، حينما بارك يعقوب حفيديه ابنيَّ يوسف - "افرايم" و"منسى"[6]- بوضع يديه عليهما بشكلٍ معكوسٍ. وبالتأكيد وضعِهما فوق بعضهما بهذا الشكل المخالف - كشِبه ما سيحدث للمسيح- كان يُنبئ بمنح البركة المستقبلية التي للمسيح.

ثم ينزل الروح القدس بإرادته من عند الآب، ليحل فوق مياه المعمودية على أجسادنا المغسولة والمبارَكة، مُدرِكًا أنها عرشه القديم، ويستقر عليها. وهو الذي نزل على الرب "مِثل حمامةٍ"[7] كي يعلِن عن طبيعة الروح القدس في صورة هذا المخلوق المخلوق البسيط البريء، الذي هو بسيطٌ حتى في تركيبه الجسدي، ولا يحتوي على

---

[1] (1تي2: 8) وهو يقصد هنا أيادي الكهنة والأساقفة الموكَّلين بإتمام السر. {المترجم}

[2] أي الروح القدس.

[3] حيث يحيا الإنسان بشركة الروح القدس، وبركة التجديد الذي حصل عليه بماء المعمودية. {المترجم}

[4] وهو هنا يريد أن يقول: إن صانع السر هو الله، رغم أنه يتم بأيادٍ بشريةٍ. {المترجم}

[5] أي مثال المسحة القديمة.

[6] (تك48: 14)

[7] (مت3: 16)، (لو3: 22)

مرارةٍ.[1]

ولذلك قال الرب: "كونوا بسطاء كالحمام".[2] وحتى هذا الأمر لم يُذكَر بدون سَندٍ واضحٍ من تشبيهٍ سابقٍ، لأنه كما أن الشر القديم قد تطَهَّر بعد مياه الطوفان (مثلما تطَهَّر العالم بعد المعمودية) وكانت الحمامة هي المُبشِّر الذي أعلن هدوء الغضب السماوي، حينما أُرسِلَت من الفُلك وعادت بغصن الزيتون–[3] وهي العلامة التي صارت معروفة بين الشعوب كدليلٍ للسلام– فهكذا بنفس القانون السماوي الذي تم على الأرض (التي هي جسدنا) حينما برزت من المياه بعد خطاياها القديمة،[4] طارت حمامة الروح القدس محضِرة لنا سلام الله، مُرسَلةً من السماوات إلى الكنيسة، التي هي مثال الفُلك.

هناك من يقول: "لكن العالم عاد إلى الخطية، فلذلك لا يجب مشابهة المعمودية بالطوفان". أقول: "لأجل هذا سيكون مصير العالم هو النار، وهو كذلك مصير الإنسان الذي يخطئ ثانيةً بعد المعمودية.[5] فلابد أن نعتبر هذه العلامة إنذارًا لنا".

---

[1] والمرارة تشير للقسوة والحقد والضغينة، ويقولون في المَثل: "هذا الشخص لحمه مر" أي أنه ليس سهلاً، كما أن الحوصلة المرارية تفرز عصارة لهضم الدهون، وهي مواد عسرة الهضم. وهو يريد أن يقول ما معناه أن الحمام مخلوقٌ بسيطٌ حتى في تكوينه. والمعروف أيضًا عن الحمام أن ذكوره لا تتصارع على الإناث، بل يتم التزاوج بكل بساطةٍ. {المترجم}

[2] (مت10: 16)

[3] (تك8: 10، 11)

[4] أي بعد أن بدأت الأرض تجف (تك8: 5) وهو يقصد بعد التخلص من آثار الخطايا القديمة لسكان الأرض. {المترجم}

[5] بدون توبة.

الفصل التاسع

1- البحر الأحمر.

2- الماء من الصخرة.

فكم هو عدد المدافعين من الطبيعة؟[1] وكم هي امتيازات النعمة؟[2] وكم هو عدد الشعائر الدينية الطقسية، والأمثلة والتجهيزات والصلوات, التي رُتبت لأجل تقديس الماء؟

أول مثالٍ, كان عندما تحرر الشعب وصار بلا قيودٍ،[3] وهرب من بطش مَلك مصر بالعبور خلال الماء – وهذا الماء نفسه هو الذي أهلك المَلك وكل قواته –[4] فبالتأكيد لا يوجد رمزٌ من رموز سر المعمودية قد تحقق بشكلٍ أوضحٍ من ذلك. فإن الشعوب تتحرر من العالم بواسطة الماء، تاركين الشيطان – الطاغوت القديم – غارقًا بالتمام في الماء.

والمثال الآخر كان عندما أُعيد الماء من المرارة إلى حُسن عذوبته الأصلية بشجرة موسى،[5] وهذه الشجرة كانت المسيح، الذي استعاد لنفسه الينابيع التي كانت لها طبيعة مُرّة ومسمومة في السابق، إلى مياه صِحية تمامًا، التي هي مياه المعمودية. هذا هو الماء الذي تدفق باستمرارٍ للشعب من الصخرة التي تابعتهم،[6] لأنه إن كان المسيح هو "الصخرة"، فنحن بدون أدنى شكٍ نرى أن ماء المعمودية مبارَكٌ بالمسيح. إذًا، كم هو مقدار عظمة النعمة التي للماء في نظر الله ومسيحه، حتى يختارها لتأكيد المعمودية؟!

---

[1] عن المعمودية.

[2] التي حصلنا عليها.

[3] أي شعب اسرائيل (خر8: 25، 28)، (خر10: 10، 11، 24)

[4] (خر14: 27-30)

[5] (خر15: 24، 25)

[6] (1كو10: 4)

فأينما وُجد المسيح كان يوجد الماء. حتى أنه اعتمد بنفسه في الماء،[1] ودَشَّن بالماء أول إعلانٍ مبدأيٍ عن قوَّته حينما دُعي للعرس.[2] ودعا العِطاش إلى الماء الأبدي حينما ألقى عظة.[3] وفي تعليمه عن المحبة، فضَّل كأس الماء المقدَّم للفقير (الصغير)[4] عن باقي أعمال الصَدقة. وجدد قواه عند البئر،[5] ومشى فوق الماء،[6] وعبر البحر بإرادته،[7] وقدَّم ماءً لتلاميذه،[8] واستمر يشهد للمعمودية حتى إلى وقت آلامه. وأثناء تسليمه للصلب كان الماء موجودًا، ويدا بيلاطس تشهدان[9]. وحينما طُعن، خرج مِن جنبه ماءٌ، وحربة الجندي تشهد.[10]

---

[1] (مت3: 13-17)

[2] (يو2: 1-11)

[3] (يو7: 37، 38)

[4] (مت10: 42)

[5] أي بئر يعقوب (يو4: 6)

[6] (مت14: 25)

[7] (مر4: 36)

[8] ليغسل أرجلهم (يو13: 5)

[9] (مت27: 24)

[10] (يو19: 34)

الفصل العاشر

معمودية يوحنا

لقد تكلمت, على قدر إمكانياتي المتواضعة, عن الأمور العامة التي تُشكِّل أساسيات قداسة المعمودية. والآن سوف أنتقل للكلام عن بقية الأمور التي تختص بالمعمودية بأقصى ما عندي من قوة، متطرقًا لبعض الأسئلة الفرعية.

إن المعمودية التي نادى بها "يوحنا" كَوَّنت في تلك الأيام مادةً لسؤالٍ قد عرَضه الرب بالفعل بنفسه على الفريسيين، ألا وهو: "هل كانت هذه المعمودية[1] سماويةً، أم هي في الحقيقة أرضية؟" وهو السؤال الذي لم يقدروا أن يقدموا إجابةً مناسبةً عنه، نظرًا لأنهم لم يفهموا، لكونِهم لم يؤمنوا.

أما نحن، فبالرغم من ضعف إيماننا وقِلة مقدار فهمنا، لكننا نستطيع أن نُقرِر أن تلك المعمودية كانت سماوية حقًا. وبالرغم من أنها كانت ذات طبيعة بشرية، إلا أنها كانت أيضًا سماوية, لكن مِن جهة الوصية وليس مِن جهة الفاعلية. لأننا نقرأ أن "يوحنا" كان مُرسَلاً من قِبل الرب ليقوم بهذه المهمة،[2] لأنها لا توصِل إلى أمرٍ سماويٍ، لكنها كانت تُقدِّم خدمة تمهيدية لأمورٍ سماوية. أعني أنها كانت مُعيَّنة لأجل التوبة، التي للإنسان دور فيها. وفي الواقع، إن معلمي الناموس والفريسيين الذين رفضوا أن يؤمنوا، هم أيضًا لم يتوبوا.[3]

لكن بما أن التوبة عملاً بشريًا، إذًا فمعمودية التوبة من الضروري أن تكون

---

[1] أي معمودية يوحنا (مت21: 25)، (مر11: 30)، (لو20: 4)

[2] (يو1: 33) الأمر كان إلهيًا بأن يعتمد الناس، لكن للتوبة وليس لتجديد الطبيعة الفاسدة. {المترجم}

[3] (مت3: 7-12)، (مت21: 31، 32)

من نفس الطبيعة.[1] ولو كانت لها فاعلية سماويةً, لكانت قد مَنحت الروح القدس وأعطت مغفرة الخطايا. فمَن هو الذي يستطيع أن يصفح عن الخطايا أو يمنح الروح مجانًا, إلا الله وحده؟[2] فحتى الرب نفسه قال: إن الروح لا يمكن أن يأتي بأي حالٍ إلّا بعدما يصعد هو أولاً إلى الآب،[3] وبالتأكيد لن يستطيع العبد[4] أن يقدم الشيء الذي لم يقدمه سيده بَعد.

وبناءً على ذلك، نجد في أعمال الرسل أن الرجال الذين نالوا معمودية يوحنا فقط لم يَقبلوا الروح القدس، ولم يسمعوا حتى أنه موجودٌ.[5] إذًا، فلأنها ليست أمرًا سماويًا، فهي لم تستطع أن تعطي المنحة السماوية. حتى أن الشيء السماوي نفسه الموجود في "يوحنا"– الذي هو روح النبوة – قد انتهى تمامًا بعد انتقال هذا الروح بالتمام إلى الرب،[6] لدرجة أن "يوحنا" نفسه قد أَرسل في الحال ليسأل إن كان هو مَن بشَّر به أم لا،[7] على الرغم من أنه كان قد أشار إليه عندما أتى إليه, بأنه "هو".[8]

لذلك، اعتُبرَت معمودية التوبة كأنها طلبٌ مختصَرٌ لأجل الغفران والتطهير، مُقدَّم للمسيح الآتي. لأجل ذلك اعتاد "يوحنا" أن "يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة

---

[1] فكرة أن التوبة عملٌ بشريٌ فقط هي غير دقيقة، لأننا نعرف أن التوبة عملٌ مشتركٌ بين الإنسان والله الذي يقف دائمًا على الباب ويقرع. وهذا أيضًا واضحٌ من قول "ارميا" النبي: "توِّبني فأتوب" (ار31: 18). {المترجم}

[2] (مر2: 8)، (1تس4:8)، (2كو1: 21، 22)

[3] (يو16: 6، 7)

[4] يوحنا

[5] (أع 19: 1–7)

[6] يقصد روح النبوة الذي مُنِح ليوحنا المعمدان، وانتهى بمجرد ظهور السيد المسيح.

[7] (مت11: 2–6) (لو7: 18–23) ولكن الأرجح أن سؤال يوحنا الذى أرسله مع تلاميذه إلى السيد المسيح كان لأجل إيمان تلاميذ يوحنا، وليس لأجل أن يتأكد هو نفسه. {المترجم}

[8] (يو1: 6–36)

الخطايا"،[1] وكان هذا التصريح يشير إلى المغفرة المستقبلية.

فإن كان الأمر صحيحًا – وهو بالفعل صحيحٌ – فإن التوبة تسبق, والمغفرة تتبعها. هذا الأمر هو "إعدادٌ للطريق".[2] لكن الذي يُعِد الطريق لم يكن هو نفسه كاملاً، بل كان يدبِّر لشخصٍ آخر أن يُكمِل. ويوحنا نفسه اعترف بأن الأمور السماوية ليست له بل للمسيح, حينما قال: "الذي من الأرض هو أرضي ومن الأرض يتكلم، والذي يأتي من السماء هو فوق الجميع"،[3] وأيضًا قال: "أنا أعمدكم بماءٍ للتوبة، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني، الذي لست أهلاً أن أحمل حذاءه. هو سيعمدكم بالروح القدس ونار".[4]

بالتأكيد بما أن الإيمان الصحيح الثابت يُعمِّد بالماء لأجل الخلاص، إذًا فالإيمان الكاذب الضعيف يُعمِّد بالنار لأجل الدينونة.

الفصل الحادي عشر

الرد على الاعتراض بأن الرب لم يكن يُعمِّد

البعض يقول: "لكن انظروا، إن الرب قد أتى ولم يُعمِّد، لأننا نقرأ أن يسوع نفسه لم يكن يُعمِّد، بل تلاميذه".[5] ولكن, هل يوحنا فعلاً كرز بأن المسيح سيُعمِّد بيديه؟ بالتأكيد ما قاله يوحنا لا يُفهَم هكذا، لكنه قيل بشكلٍ عاديٍ. بالضبط مثلما نقول على سبيل المثال: "لقد نَشر الإمبراطور مرسومًا"، أو: "لقد ضربه الحاكم بالعِصي". فهل الإمبراطور نشر المرسوم بنفسه؟! أو هل الحاكم قد ضرب الرجل

---

[1] (مر1:4)

[2] (لو1:76)

[3] (يو3:31)

[4] (مت 3: 11)

[5] (يو4: 2)

بنفسه؟! إن الشخص الذي يقوم خُدامه بفعل شيءٍ، يُقال إنه هو الذي عمله.[1] إذًا، عبارة "هو سيعمِّدكم" ينبغي أن تُفهَم هكذا: "بواسطته ستعتمدون"، فلا تدَعوا حقيقة أنه لم يُعمِّد أحدًا تُتعبكم.

ثم إنه بأي شيءٍ كان سيُعَمِّد؟ بالتوبة؟ فلماذا إذًا أقام مَن يسبقه؟! هل كان سيعمِّد بمغفرة الخطايا، وهو الذي اعتاد أن يمنح مغفرة الخطايا بكلمةٍ منه؟! وهل سيعمِّد بنفسه، وهو الذي كان يختفي بسبب تواضعه؟! هل كان سيعمِّد بالروح القدس الذي لم يكن قد أرسله الآب بعد؟ أم بالكنيسة التي لم يؤسسها رُسله بعد؟! لذلك كان التلاميذ يُعمِّدون كخدام، بنفس معمودية يوحنا، وهي المعمودية التي كان يعمِّد بها يوحنا قبلاً، كسابقٍ للمسيح.

والآن، لا أريد أن يظن أحدٌ بأن سِر المعمودية قد تم على يد آخرٍ. لأنه لا يوجد آخرٌ غير المسيح، وهو الذي أتمَّه فيما بعد. فبالطبع حتى ذلك الوقت لم يكن في إمكان التلاميذ منحها، نظرًا لأن مجد الرب لم يكن قد بلغ تمامه بعد،[2] ولا ثبتت فاعلية المعمودية مِن خلال الآلام والقيامة. لأنه لا يمكن لموتنا أن يَبطُل إلا بآلام الرب، ولا يمكن استرداد حياتنا بدون قيامته.[3]

---

[1] مثل قصه خادم قائد المائة (مت 8: 5)، (لو 7: 3). حيث قيل في إنجيل "متى" إن قائد المائة طلب من المسيح أن يشفى خادمه. وفي انجيل "لوقا" قيل إنه أرسل يطلب منه أن يشفى خادمه. والقصة بالضبط أنه أرسل شيوخ اليهود إلى المسيح طالبًا الشفاء لخادمه على لسانهم، لكن يُفهَم أنه جاء يطلب إليه كما هو مذكور في إنجيل متى. والأمر كذلك في قصة طلب ابنىّ زبدي وأمهما الذي طلبوه من السيد المسيح في (مت 20: 20)، (مر 10: 35).

[2] (1بط 1: 11)

[3] حيث أن المعمودية في مفهومها هي موت مع المسيح ثم قيامة معه أيضًا.

الفصل الثاني عشر

ضرورة المعمودية لأجل الخلاص

ولكن عندما صارت القاعدة هي: "بدون المعمودية لا يمكن الحصول على الخلاص"، خصوصًا بسبب تصريح الرب الذي قال: "إن كان أحد لا يولد من الماء والروح، لا يقدر أن يدخل ملكوت الله"،[1] ظهر في الحال أشخاصٌ موَسوِسين، بل بالأحرى وقحين. يُشككون في هذه الجزئية بقَولهم: "كيف نال الرسل الخلاص وهم لم يعتمدوا للرب بحسب هذه القاعدة، عدا بولس (الرسول) فقط، لأن بولس هو الوحيد بينهم الذي لبس ثوب معمودية المسيح؟[2] فإما أن نحكم مسبقًا بهلاك الآخرين كلهم، الذين تنقصهم مياه (معمودية) المسيح، لأجل تمسكنا بهذه القاعدة، أو لنلغي القاعدة إن كان هؤلاء الغير مُعَمَّدين قد نالوا الخلاص"!!

يَشهد الرب أنني قد سمعت شكوكًا من هذا القبيل، حتى لا يتخيل أحدٌ أنني رجلٌ بلا خُلُقٍ، أختلق أفكارًا قد توعِز للآخرين بالشك دون أن يستثيرني أحدٌ. فالآن بقدر إمكاني، سوف أجاوب هؤلاء الذين يؤكدون أن الرسل لم يعتمدوا.

إن الرسل قد حصلوا على معمودية يوحنا، ولكن لأنهم اشتاقوا إلى معمودية الرب، فحينئذ حدد الرب نفسه أن المعمودية تتم مرةً واحدةً،[3] حينما قال ذلك لبطرس، الذي كان يرغب في الاغتسال كاملاً،[4] وبالطبع هو لم يقلها لشخص غير مُعتَمد. وهذا هو دليلنا الواضح ضد هؤلاء الذين ينكِرون أن الرسل قد اعتمدوا حتى بمعمودية يوحنا، لأجل تدمير سر الماء المقدس.

فهل يبدو من المعقول أن "طريق الرب"، الذي هو معمودية يوحنا، لم يُعَدُّ عن

---

[1] (يو 3: 5)

[2] (غل 3: 27) لأن بولس قد اعتمد على يد "حنانيا" الرسول.

[3] (اف 4: 5)

[4] (يو 13: 9، 10)

طريق هؤلاء الأشخاص المُعَيَّنين لأجل فتح طريق الرب في كل مكانٍ في العالم أجمع؟! إن الرب نفسه بالرغم من أنه لم يتوجَب عليه أيَّة توبة، قد اعتمد. فهل المعمودية إذًا غير ضروريةٍ للخاطئين ؟!

والحقيقة أن "الآخرين الذين لم يعتمدوا" هم أولئك الذين لم يكونوا رفقاء المسيح، بل هم أعداء الإيمان, الذين هم معلمو الناموس والفريسيون. والآن يمكننا أن نستنتج من هذه الحقيقة رأيًا آخر: فبما أن مقاومي الرب هم من رفضوا أن يعتمدوا، فإذًا مَن تبعوا الرب قد اعتمدوا ولم يوافقوا رأي مخالفيهم. وبالأخص لو كان هناك من يتبعه أولئك،[1] فإن الرب قد جعل "يوحنا" أعظم منه، حينما شهد قائلاً: "لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان".[2]

وهناك آخرون، من الواضح أنهم مرغَمون على ذلك، يقترحون أن: "الرسل قد نالوا ما يشبه المعمودية حينما كانوا في سفينتهم الصغيرة، حينما رشَّتهم وغمرتهم الأمواج، حتى أن بطرس نفسه أيضًا قد غطس بما فيه الكفاية حينما مشى على البحر".[3] أيًا كان، فعلى ما أظن، أن تُرَش أو تعترضك قسوة البحر شيءٌ، وأن تَعتمد شيءٌ آخر.

مع ذلك، فتلك السفينة الصغيرة قد قدَّمت صورة (للكنيسة) المضطربة في (البحر) الذي هو العالم, (بالأمواج) التي هي الاضطهادات والتجارب. والرب صابرٌ كما لو كان نائمًا، حتى يَنهض في النهاية، عن طريق صلوات القديسين، وينتهر العالم, ويعيد الهدوء لخاصته.[4]

والآن، سواء كانوا قد اعتمدوا بأيَّة طريقةٍ، أو لبثوا غير معتمدين للنهاية – وفي هذه الحالة سيكون قول الرب بخصوص الاغتسال مرة واحدة يخُصنا نحن، في

---

[1] أي "موسى"، الذي يدَّعون أنهم تلاميذه.

[2] (يو 11: 11)

[3] أي حينما مشى وخاف وبدأ يغرق، حينئذ غطته المياه تمامًا. (مت 8: 24)

[4] تأمل رائع.

شخص بطرس، ولا يخص بطرس![1]– فأن نتخذ قرارًا بشأن خلاص الرسل هو أمرٌ في غاية الوقاحة. ذلك لأن لهم امتياز الاختيار الأول،[2] وهم لم يتركوا مرافقته بعد ذلك، مما يجعلهم قادرين على مَنح خُلاصة نعمة المعمودية،[3] نظرًا لأنهم قد تبعوا مَن اعتاد على أن يَعِد بالخلاص لكل مَن يؤمن.

فهو مَن قال:" إيمانك قد خلصك"،[4] وقال لآخر: "مغفورة لك خطاياك"،[5] بالطبع لأجل إيمانه – رغم أنه لم يعتمد بعد. فإن كان الرسل يفتقرون لذلك،[6] فبأي شيءٍ كانوا يؤمنون؟

إن أحدهم قام بكلمةٍ واحدةٍ من الرب تاركًا مكان الجباية،[7] والآخر هجر أباه وسفينته والمهنة التي كان يكسب بها عيشه،[8] والثالث ترك دفن أبيه،[9] متممًا أعظم أعظم وصايا الرب "من أحب أبًا أو أمًا أكثر مني فلا يستحقني"[10] قبل أن يسمعها.

---

[1] وهي صيغة سخرية معناها أن هذا أمرٌ مرفوضٌ بالطبع.

[2] أي أنهم أول من اختارهم السيد المسيح ليتبعوه.

[3] أي منح الخلاص باسم المسيح.

[4] (مر 10: 52)، (لو 18: 42)

[5] (مر 2: 5)

[6] أي الإيمان بالمسيح.

[7] (مت 9: 9) الذى هو متى.

[8] (مت 4: 21، 22) ويقصد "يعقوب" أو "يوحنا".

[9] (لو 9: 59، 60) رغم أن الانجيل لم يذكر إن كان هذا الرجل قد نفذ أمر المسيح أم لا.

[10] (مت 10: 37)

الفصل الثالث عشر

اعتراض آخر يقول: "لقد أرضى إبراهيم الرب بدون أن يعتمد".

الإجابة: "الأشياء العتيقة لابد أن تعطي مكانًا للجديدة،

والمعمودية الآن قد أصبحت شَرطًا".

ثم نأتي لهؤلاء الجاحدون الذين يثيرون أسئلةً قائلين: "إن المعمودية ليست ضروريةً لمَن كان إيمانهم كافيًا، لأن إبراهيم قد أرضى الرب كذلك بدون سِر المعمودية، لكن بالإيمان"!

في جميع الأحوال، الأشياء الجديدة تكون دائمًا هي الأقوى في النهاية، واللاحق يسود على السابق. فبافتراض أن الخلاص في الأيام القديمة كان بالإيمان المجرَّد، قبل أن يتألم الرب ويقوم، لكنه الآن قد عَظُم وأصبح إيمانًا بميلاده وآلامه وقيامته. فلقد أُضيف امتدادًا للعهد، الذي هو خِتم المعمودية.

وبمعنى آخر، إن ثوب الإيمان – الذي كان قبلاً عاريًا – لا يمكن أن يَبقى إلى الآن بدون قانونٍ مناسبٍ. لأن ناموس المعمودية قد صار شَرطًا، والقانون صار فرضًا. فلقد قال الرب: "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس"،[1] وبالمقارنة بالقانون التالي بالتحديد: "إن كان أحدٌ لا يولد من من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله"،[2] قد رُبط الإيمان بضرورة المعمودية. وبناءً عليه، اعتاد كل مَن صار مؤمنًا بعد ذلك أن يعتمد. هذا ما صار أيضًا مع بولس حينما آمن، فلقد اعتمد. هذا هو المقصود من الوصية التي أعطاها له الرب عندما أُصيب بضربة فقدان البصر,[3] قائلاً: "قم وادخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل"، أي اعتمد. لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي كان ينقصه، باستثناء أنه تعلم وآمن بما فيه الكفاية بأن الناصري هو الرب، وأنه ابن الله.

---

[1] (مت 28: 19)

[2] (يو3: 5)

[3] (أع 9: 6 – 9)

الفصل الرابع عشر

تصريح بولس بأنه لم يأتي ليُعمِّد

لكنهم يقدمون اعتراضًا آخر مِن قول نفس الرسول: "لأن المسيح لم يرسلني لأُعمِّد بل لأُبشِّر"،[1] وكأن المعمودية بهذه الحجة سوف تُهمَل! لكن إن كان الأمر كذلك، فلماذا عمَّد "بولس" "غايس" و"كريسبس" وبيت "استفانوس"؟[2] على العموم، حتى لو لم يكن المسيح قد أرسله ليُعمِّد، فإنه قد أوصى تلاميذه الآخرين أن يُعمِّدوا.[3]

ولكن هذه الكلمات قد كُتبت للكورنثيين في ذاك الوقت بالذات، بخصوص موضوع الختان، نظرًا لأن انشقاقات وخصومات قد اشتعلت بينهم. حيث كان يَنسب البعض كل شيءٍ "لِبولس"، والآخرون "لأبُلُّوس".[4] لهذا السبب قال الرسول صانع السلام إنه لم يُرسَل ليعمِّد بل ليبشِّر، حتى لا يبدو مُدَّعيًا كل المواهب لنفسه. فإن كان التبشير هو الشيء السابق, والمعمودية هي اللاحق، فلذلك يأتي التبشير أولاً. لكنني أعتقد أن المعمودية هي أيضًا أمرٌ مُصرَّحٌ به لمن يُبشِّر.

---

[1] (اكو1: 17)

[2] (اكو 1: 14، 16)

[3] (مت 28: 19)

[4] (1 كو 1: 12)

الفصل الخامس عشر

1- وحدانية المعمودية.

2- ملاحظات على معمودية الهراطقة واليهود.

لست أدرى إن كان هناك جدالاً آخر يضع المعمودية محلاً للنقاش، لكن اسمحوا لي أن أذكر أمرًا قد تركته قبلاً، حتى لا أبدو كمَن يُنهي سلسلة أفكار من منتصفها.[1]

ليس لدينا سوى معمودية واحدة فقط بحسب إنجيل ربنا، كما هي أيضًا بحسب رسائل الرسول الذي قال: "ربٌ واحد، إيمانٌ واحد، معموديةٌ واحدة".[2] لكن لابد من الاعتراف بأن السؤال الذي يقول: "ما هي القواعد التي يجب مراعاتها بخصوص الهراطقة؟" هو أمرٌ يستوجب المعالجة، لأن هذا التصريح يَهُمُّنا نحن.[3]

إن الهراطقة عمومًا ليست لهم شركةً في تعاليمنا، والحقيقة الوحيدة أنهم محرومون كنسيًا، مما يبين أنهم خارجون.[4] إنني غير مُطالَبٍ بأن أحكم عليهم بشيءٍ ممنوعٍ عني،[5] لأنهم ونحن ليس لنا نفس الرب ولا نفس المسيح. ولذلك معموديتهم ليست واحدةً مع معموديتنا أيضًا، لأنها ليست نفس المعمودية. وبما أنها ليست معموديةً كما يجب، فلا شك أنها ليست معموديةً على الإطلاق، ولا يجب أن نضع في الحسبان ما هو ليس موجودًا. وكذلك أيضًا لا يمكنهم الحصول عليها لأنهم لا يملكونها.[6] ولقد تناولت هذه النقطة في مناقشةٍ كاملةٍ باللغة اليونانية.

---

[1] أي "حتى لا أبدو كمن يتغافل عن بعض الأمور, وأُنهي الكلام لصالحي".

[2] (اف 4: 5)

[3] المسيحيون.

[4] عن الإيمان.

[5] كما فعل رئيس الملائكة "ميخائيل" الذى "لم يجسر أن يورد حكم افتراء، بل قال له: "لينتهرك الرب". (يه 9)

[6] أي أن الهرطوقي لا يقدر أن يعطي ما ليس له، أي أن يُعمِّد.

إذًا، نحن ندخل جُرن المعمودية مرةً واحدةً، فتُمحَى الخطايا مرةً واحدةً، لأنها لا يجب أن تتكرر. لكن اليهودي الإسرائيلي يغتسل يوميًا لأنه يتنجس يوميًا, فلِكي لا نمارِس هذا بيننا أيضًا، حُدِّد لنا اغتسالاً واحدًا.[1]

فيا لسعادتنا بالماء الذي يطهِّر مرةً واحدةً. والذي لا يسخر من الخاطئين بإعطائهم رجاءً باطلاً.[2] ولا يتلوث بتكرار الشوائب، فينجِّس ثانيةً مَن كان قد غسلهم قبلاً.

الفصل السادس عشر

المعمودية الثانية – معمودية الدم

في الحقيقة، نحن لدينا معمودية أخرى– أعني معمودية الدم – والتي تتعلق بقول الرب: "ولِي صبغةٌ أصطبغها"،[3] مع أنه كان قد اعتمد بالفعل. إنه قد أتى "بماءٍ ودمٍ"[4] كما كَتب يوحنا (الإنجيلي)، لِكي يعتمد بالماء, ويتمجد بالدم. وليجعلنا بنفس الطريقة مدعوين بالماء ومنتخَبين بالدم[5].

هاتان المعموديتان أخرَجهما مِن جرح جنبه المطعون،[6] حتى يمكن لمَن يؤمن يؤمن بدمه أن يُغسَل بالماء، ومَن غُسل بالماء يمكنه كذلك أن يشرب الدم.[7]

---

[1] (يو 13: 10)، (أف 4: 5)

[2] يقصد اليهود الذين مازالوا يأملون أن يطهرهم الماء من النجاسة.

[3] (لو 12: 50)

[4] (1يو 5: 6)

[5] المقصود هنا بالدم هو الاستشهاد, أو الجهاد بكل قوة "لم تقاوموا بعد حتى الدم مجاهدين ضد الخطية". (عب12: 4)

[6] (يو 19: 34)

[7] (يو 6: 43، 54) بالتناول من الجسد و الدم للتطهير من الخطايا التي تُرتَكب بعد سر المعمودية.

هذه هي المعمودية التي يمكن أن تقوم عوضًا عن حميم ماء المعمودية لِمَن لم يحصل عليه،[1] وهي أيضًا التي تجدِّد المعمودية حينما يضيع تأثيرها.[2]

الفصل السابع عشر

القدرة على منح المعمودية

وحتى ننتهي من موضوعنا الموجز هذا، بقي أن أُذَكِّركم بالأمور الواجب مراعاتها، سواء عند منح أو نوال المعمودية.

بالنسبة لِما يتعلق بمنح المعمودية، فإن رئيس الكهنة (أي الأسقف) هو مَن له الأحقية، ثم يأتي مِن بعده القسوس والشمامسة،[3] بعد أخذ التصريح من الأسقف، لأجل كرامة الكنيسة, التي إذا حُفظَت، حُفظ السلام.

وبجانب هؤلاء، فحتى الشخص العلماني له الأحقية إذا لم يوجد أسقف أو كاهن أو شماس في المكان...[4]

لا يجب أن تُخفى كلمة الرب بسبب أي شخصٍ. وهكذا أيضًا المعمودية التي

---

[1] يقصد هنا الشهداء الذين سفكوا دمهم لأجل اسم المسيح قبل أن يعتمدوا، وهي تُدعى معمودية الدم، والتي نالها الكثير من الشهداء الذين كانوا وثنيين وآمنوا واستشهدوا قبل أن يعتمدوا. يرى البعض أن الشهيد الذي آمن أثناء تعذيب المؤمنين، فأعلن إيمانه وهو في ساحة الاستشهاد، ولم يجد فرصةً للذهاب إلى الكنيسة لينال سرّ العماد، يُحسب استشهاده معمودية. {المترجم}

[2] وهو يقصد فُقدان الإنسان للنقاوة بسبب الخطية, أما المعمودية نفسها فلا يمكن أن تفقد قيمتها إلا بالتجديف على الروح القدس.{المترجم}

[3] حيث كان للشماس إمكانية ممارسة الأسرار المقدسة، خصوصًا في الأماكن التي لم يكرِز بها أحدٌ مِن قبل. لكن مع انتشار المسيحية اقتصرت صلاحيات الشماس على إمكانية مساعدة الكاهن في مسك الكأس المقدس وقت التناول، ومناولة الدم (حاليًا للشماس برتبة ذياكون وأرشى ذياكون في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية). {المترجم}

[4] كما حدث في أيام البابا بطرس خاتم الشهداء, حينما عمَّدت الشهيدة "سارة" طفليها في عَرض البحر بدمها, خِشية أن يموتا قبل المعمودية, وقبِل الرب هذا كمعمودية, وشهد البابا بذلك. {المترجم}

هي مِلكٌ للرب بالتمام، يمكن أن تُعطَى من خلال كل المؤمنين. ولكن يجب أن يتحلى التعليم بالوقار والتواضع الواجب, وفي حالة العلمانيين بشكلٍ أكثر بكثيرٍ، نظرًا لأن هذه الموهبة تخص رؤسائهم.[1] إلا إذا كانوا يريدون أن يأخذوا الوظيفة الخاصة بالأُسقف لأنفسهم! فإن منافسة الأُسقف في عمله هي بداية الانشقاقات، والرسول العظيم في القداسة قال: "كل الأشياء تحل لي، لكن ليست كل الأشياء توافق"[2].

فلنكتفِ إذًا باستخدام هذه الصلاحية في الحالات الضرورية فقط، أي وقتما تضطركم الظروف – سواء ظروف المكان أو الزمان أو الأشخاص – لأن في ذلك الوقت يكون تجاسر الشخص المُنقِذ مقبولاً بشكلٍ استثنائيٍ، حينما يكون موقف الشخص المُعرَّض للخطر موقفًا مستعجلاً, لأن المُنقِذ سيكون مذنِبًا لأنه أضاع إنسانًا, إذا امتنع أن يَمنح ما سُمح له بأن يمنحه بحُرية.[3]

أمَّا المرأة الوقحة[4] التي اغتصبت لنفسها سُلطة التعليم، فلن تستطيع أن تعطي لنفسها أيضًا إمكانية التعميد، وإلا فسوف تُنتِج وحوشًا جديدة مثلها. لأنها إن أفسدت المعمودية، فإن الآخرين مِن أتباعها سوف يمنحونها فاسدةً بسلطانها!

لكن إن كانت هناك كتاباتٌ قد نُسبَت بالخطأ لبولس،[5] والتي تدَّعي أنَّ نموذج القديسة "تِكلا" هو تصريحٌ للنساء بالتعليم والتعميد. فليَعلم هؤلاء الموجودون في آسيا

---

[1] أي الرئاسة الكنسية، وهو ما يؤكد أن هذا كان أمر عرضي, وللضرورة المؤقتة في ذلك الزمان.

[2] (1كو 10: 23)

[3] أي أن هذا السلطان غير مسموحٍ به لأحد إلا للأساقفة والكهنة، لكن إذا وُجدت ظروفًا استثنائيةً مُلِحَّة، فحينئذ ستكون الضرورة موضوعة على أي مسيحيٍ بأن يُعمِّد، كيلا يحاسبه الله إذا ما هلك هذا الشخص المحتاج للمعمودية. مثلما عمَّدت الشهيدة "سارة" طفليها في عرض البحر بدمها. {المترجم}

[4] "كوينتيلَّا".

[5] حيث نسب أحد الكهنة لبولس الرسول كتاب يسمى "الرسالة الى التلميذة تكلا" في ذلك الزمان.

أن الكاهن الذي ألَّف هذه الكتابات بحِجة زيادة شهرة بولس– بعدما ثَبتت عليه التهمة واعترف بأنه فعل ذلك حُبًا في بولس– قد جُرّدِ من رُتبته. لأنه لا يمكن تصديق أن مَن لم يسمح للمرأة حتى بأن تتعلم,[1] قد أَعطى سلطان التعليم والتعميد لامرأة. فلقد قال: "لتصمت نساؤكم في الكنائس، لأنه ليس مأذونً لهُن أن يتكلمن", ثم أكمل قائلاً "لكن إن كُنَّ يُرِدن أن يتعلمن شيئًا فليسألن رجالهن في البيت، لأنه قبيحٌ بالمرأة أن تتكلم في الكنيسة".

الفصل الثامن عشر

مَن هو الذي ينال المعمودية؟ ومتى؟

وأمَّا الذين وظيفتهم التعميد، فإنهم يَعلَمون أنه لا يجب أن تُعطَى المعمودية بتعجلٍ. أمَّا قول الرب: "كلُّ من سألك فأعطه"،[2] فقد كان له دلالته الخاصة التي تخُص الصَدَقة. وبالعكس، إن هذه الوصية يجب أن يُنظر إليها بحرصٍ حسب قول الرب: "لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير"،[3] وأيضًا: "لا

---

[1] (كو 14: 34، 35) البعض يرى أن الرسول قال ذلك عن المرأة الثرثارة والنمامة على غيرها. والبعض يفسر أن بولس الرسول قد قال ذلك الكلام خوفًا من التشبه بما كانت تفعله الوثنيات، حيث كُن يُعلِّمن ويمارسن الطقوس الوثنية، والتي كان بها الكثير من الانحلال، وهو الأمر الذى كان منتشرًا في كورنثوس في ذلك الوقت. والبعض يقول أنه يقصد التعليم والكلام الخاص بالكهنوت. على العموم، إن الكنيسة لا تسمح للمرأة بالقيام بأي عمل كهنوتي، لأن الكهنوت هو وظيفة الرجال، لأن "الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح هو رأس الكنيسة". والقديسة مريم العذراء هي خير دليلٍ على ذلك، وإلا كانت هي أصلح واحدةٍ تقوم بوظيفة الكهنوت لو سمحَت الكنيسة بذلك. أمَّا بخصوص المرأة، فيمكنها أن تُعلِّم في الاجتماعات الروحية دون القيام بممارسة الأسرار، وهذا هو الرأي المعتدل للكنيسة القبطية الأرثوذكسية.{المترجم}

[2] (لو 6: 30)

[3] (مت 7: 6)

تضع يدًا على أحدٍ بعجلةٍ، ولا تشترك في خطايا الآخرين".[1]

فإن كان "فيلبس" قد عمَّد الوزير بهذه السهولة، فإن ذلك يرجع إلى تدَخُّل الرب الواضح والظاهر، وحُكمِه بأنه مستحقٌ.[2] فلقد أمر الروح "فيلبس" أن ينحدر إلى ذلك الطريق. وأيضًا "الخصي" نفسه لم يكن متهاونًا، ولا كان كمَن اشتهى المعمودية فجأةً. لكن بعد صعوده إلى الهيكل لأجل الصلاة، وانكبابه على قراءة الوحي الإلهي، كان من السهل أن يجده الرسول[3] الذي أرسله الرب بنفسه, وأمَره الروح أيضًا بأن يرافق المركبة بنفسه. وقد كان فصل الكتاب الذي كان يقرأه,[4] متوافقًا مع ما يناسب لأجل إيمانه. فطَلب مِن "فيلبس" الجلوس بجواره، ثم عُرِف الرب ولم يتأخر الإيمان. ولم يكن هناك حاجةٌ لانتظار الماء.[5] فتم العمل, واختُطِف الرسول.

والحقيقة أيضًا أن بولس (الرسول) قد اعتمد بسرعةٍ، لكن ذلك لأن (حنانيا)[6] قد عَلِم سريعًا أنه قد عُيِّن "إناءً مختارًا"،[7] لأن استحسان الله للإنسان يجعل الله يرسِل علامات تنبيهية مؤكِّدة أمام هذا الإنسان.

فلا ننخدع أو نخدع أحدًا بآية: "مَن سألك فأعطه"،[8] لأنه مِن الأفضل التأني في

---

[1] (1تي 5: 22)

[2] (أع 8: 6 – 40) حيث أن الرب هو من أرسل "فيلبس" مخصوص لذلك الأمر.

[3] مع ملاحظة أن "فيلبس" هذا هو الشماس وليس التلميذ، لكن كلاهما يُعتبر رسولاً على العموم.

[4] (أع 8: 28 – 33)، (أش 53: 7، 8)

[5] لأنهما أقبلا على ماءٍ في الطريق.

[6] ذُكرت هذه العبارة في النص الأصلي: "سمعان مضيف بولس"، لكن من الواضح أن "ترتليان" قد اختلط عليه الأمر بين "بطرس" الرسول الذي كان نازلاً عند "سمعان" الدباغ، و"بولس" الرسول الذي نزل عند رجل اسمه "يهوذا". كما أن "حنانيا", وليس "يهوذا" المضيف, هو من قيل له مِن قِبل الله إن: "بولس إناءً مختارٌ". وذلك الخطأ كان بسبب ارتجال "ترتليان" لما يذكره مَن آياتٍ دون مراجعة النص مراجعة دقيقة من الكتاب المقدس. {المترجم}

[7] (أع 9: 15)

[8] (لو 6: 30)

في مَنح المعمودية تِبعًا لظروف واستعداد وعمر كل فرد، ...

لأجل هذا أيضًا نهتم بأن نتأنى على غير المتزوجة – التي قد تتعرض للغواية بسبب نُضجها إن كانت عذراء، أو بسبب حُرِّيتها إن كانت أرملة – إلى أن تتزوج، أو تصبح قوية بما فيه الكفاية لتحيا عفيفة.

فمَن أدرك المعنى الخطير للمعمودية سوف يخاف من الحصول عليها, أكثر من خوفه من تأجيلها. فالإيمان السليم هو الضامن للخلاص.[1]

الفصل التاسع عشر

المواعيد الأكثر ملائَمة للمعمودية

إن عيد القيامة هو أقدس يومٍ يناسب إتمام سرّ المعمودية، حيث فيه تكون آلام الرب التي نعتمد لها قد كَمُلت. وسيكون التفسير المجازي مناسبًا إن قلت بالحقيقة: إن الرب حينما أراد الاحتفال بآخر عيدٍ للفصح، وقال لتلاميذه الذين كان قد أرسلهم لإعداد الفصح: "فيلاقيكما إنسانٌ حاملٌ جَرة ماء، اتبعاه"،[2] قد أشار إلى مكان الاحتفال بالفصح بعلامة الماء.[3]

ثم بعد ذلك فترة الخماسين, التي هي أبهج فترة لمنح المعمودية، حيث قد صارت فيها قيامة الرب مؤكَّدة بتكرار الظهور، وصار مجيء الرب واضحًا بصورةٍ غير مباشرةٍ. ففي هذه الفترة – أي فترة الخماسين بالتأكيد– حينما صعد إلى السماوات، قال الملاكان للرُسل: "سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقًا إلى السماء".[4] وكذلك حينما

---

[1] وهو ما يؤكده أيضًا القديس "كيرلس الأورشليمي"، والمقصود هنا هو التأني الشديد قبل منح المعمودية للكبار الذين لازالوا لا يفهمون معناها. {المترجم}

[2] (مر 14: 13)، (لو 22: 10)

[3] وهو هنا يريد أن يقول إن جرة الماء كانت إشارة للمعمودية التي بها نحصل على بركات القيامة، لأن المعمودية هي دفن مع المسيح ثم قيامة معه. {المترجم}

[4] (أع 1: 10، 11)

قال "إرميا" (النبي): "وأجمعهم من أطراف الأرض"،[1] كان يعني القيامة والخماسين، والتي هي أيام الأعياد كما ينبغي أن تكون.

ومع ذلك، فكل يومٍ هو يومٌ للرب،وكل ساعةٍ وكل وقتٍ سيكون مناسبًا للمعمودية.وإن كان هناك اختلاف في الطقوس،فبالتأكيد لن يوجد اختلاف في النعمة.[2]

الفصل العشرون

الاستعداد لقبول المعمودية، والسلوك بعدها.

أمَّا هؤلاء الذين هم على وشك التقدم للمعمودية، فيجب عليهم أن يداوموا على الصلاة بأصوامٍ، وسجودٍ، وأسهارٍ طوال الليل، وباعترافٍ عن كل الخطايا السالفة. لكي يُظهِروا نفس الهدف الذي كان لمعمودية يوحنا، كما جاء في الكتاب المقدس: "واعتمدوا منه... معترفين بخطاياهم".[3] فيجب علينا أن نعترف بشرورنا ونقائصنا الآن علانيةً ونحن شاكرين، لأننا بها نُكَفِّر عن خطايانا السابقة بقمع أجسادنا وأرواحنا، وفي نفس الوقت نضَع أساسًا من البداية للدفاع ضد التجارب التي سوف تأتى عن قريب.[4] هكذا قال الرب: "اسهروا وصلوا، لئلا تدخلوا في تجربة"،[5] وأعتقد أن السبب في كونهم قد جُرِبوا هو أنهم ناموا, ولأجل ذلك تركوا الرب وقت القبض عليه. وحتى الذي ساعده واستخدم السيف, أنكره ثلاث مرات.[6] إن الرب الذي قال:

---

[1] (أر 31: 8)

[2] لأن طقس الخماسين يختلف عن باقي أيام السنة، يصَلَّى فيه بنغمة الفرح، ويُزَف المُعمَّد بألحان القيامة. {المترجم}

[3] (يو 3: 6)

[4] (سى 2: 1)

[5] (مت 26: 41)

[6] (مت 26: 51)

"بضيقاتٍ كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت السماوات"،[1] هو نفسه, على الفور بعد المعمودية، قد أحاطته التجارب حينما صام أربعين يومًا.[2]

وقد يقول أحدكم: "إذًا، يجب علينا نحن أيضًا أن نصوم بعد المعمودية"، أقول: "نعم، وما هو الذي يمنعك؟ إلا إذا كنت ترى أن الإفطار هو ضرورة للتعبير عن الفرح والشكر لأجل الخلاص ؟!"[3]

بقُدراتي الضعيفة أعتقد أن الرب أراد أن يَرُد مجازًا على ملامة شعب إسرائيل التي ألقوها عليه،[4] حيث أن الشعب بعد عبورهم البحر، وحَمْلِهم في البرية[5] لمدة أربعين أربعين سنة، رغم أنهم كانوا يقتاتون هناك بالطعام السماوي،فمع ذلك كان اهتمامهم ببطونهم وحلوقهم أكثر من اهتمامهم بالرب.لأجل ذلك أُقتيد الرب وحده إلى الأماكن المقفرة بعد المعمودية، وأَظهر ببقائه صائمًا لمدة أربعين يومًا أن إنسان الله يحيا "ليس بالخبز وحده"،"بل بكل كلمةٍ تخرج من فم الله"،[6] وأن التجارب التي تحدث بسبب الامتلاء والإفراط في الشهوة يمكن تحطيمها بالزهد.

لذلك أيها المبارَكون الذين تنتظرهم نعمة الرب، حينما تصعدون من هذا الجُرن المقدس الذي لميلادكم الجديد، وتبسطون أياديكم لأول مرة في بيت أمكم[7] مع إخوتكم، أطلبوا من الرب أن يُزَوِّدكم بنعمِه وعطاياه الخاصة، وأن يوزع عليكم هِباته، فهو مَن قال:"اسألوا تُعطَوا".[8]

---

[1] (أع 14: 22)

[2] (مت 4: 3،2)

[3] وهو سؤالٌ غرضه السخرية.

[4] (خر 16: 3، 7)، (عد 21: 5)

[5] (خر 19: 4)

[6] (مت 4: 1−4)

[7] الكنيسة.

[8] (مت7:7)

فالآن أنتم سألتم فأخذتم،وقرعتم ففُتِح لكم،وكل ما أطلبه منكم هو أن تذكروا "ترتليان" الخاطئ أيضًا حينما تطلبون.

المراجع

1- Ante-Nicene Fathers vol. 3
2- Ante-Nicene Fathers vol. 4
3- The Oxford dictionary of The Christian Church.

4- الكتاب المقدس الطبعة البيروتية.
5- العلاَّمة ترتليان. لأنطون فهمي (القس أثناسيوس فهمي).
6- ترتليان. الأب وليم سيدهم اليسُوعي.
7- موسوعة الكتاب المقدس. الإصدار الرابع.
8- قاموس دار المعارف.

الفهرس

النص الثانــي: الصبر

مقدمة المترجم

الفصل الأول:

(1- الصبر عمومًا) (2- عدم استحقاق ترتليان للكلام عن الصبر)

الفصل الثاني: (الله نفسه نموذج للصبر)

الفصل الثالث: (تجسد وعمل يسوع المسيح هو أكثر نموذج يُقتَدى به)

الفصل الرابع:

(1- الواجب علينا الاقتداء بما علَّمنا الرب مُعلِّمنا، أن نتمثل بالعبيد

(2- أو حتى بالبهائم) (2- التمثُّل بالطاعة هو أساس الصبر)

الفصل الخامس:

(بما أن الله هو أصل الصبر، فالشيطان إذًا هو أصل عدم الصبر)

الفصل السادس: (الصبر هو السابق واللاحق للإيمان)

الفصل السابع: (مُسببات عدم الصبر، والوصايا الملائمة لها)

الفصل الثامن: (احتمال العنف والسب)

الفصل التاسع: (الصبر على فقدان الأحباء)

الفصل العاشر: (الانتقام)

الفصل الحادي عشر:

(الأسباب الأخرى لممارسة الصبر، وعلاقتها بالتطويبات)

الفصل الثاني عشر

(1- بعض الوصايا الإلهية الأخرى)

(2- تعريف الرسول للمحبة وعلاقتها بالصبر)

الفصل الثالث عشر: (صبر الجسد)

الفصل الرابع عشر

(قوة هذا الصبر المزدوج – أي صبر الروح وصبر الجسد – قد تجلَّت في قديسي العهد القديم)

الفصل الخامس عشر: (مُلخَّص عام لفضائل وتأثيرات الصبر)

الفصل السادس عشر

(صبر الوثنيين يختلف تمامًا عن صبر المسيحيين.

صبرهم محكوم عليه بالهلاك، وأما صبرنا فيؤدي إلى الخلاص)

النص الثالث: التوبة

مقدمة المترجم

الفصل الأول: (توبة الوثنيين)

الفصل الثاني: (التوبة السليمة هي أمر إلهى أوجده الله، ويخضع لشرائعه)

الفصل الثالث:

(يمكن تقسيم الخطايا إلى جسدية وروحية، وكلاهما سيخضع للفحص

والعقاب الإلهي بنفس الدرجة، حتى لو كانا غير متساويان في نظر الناس)

الفصل الرابع:

(التوبة تناسب جميع أنواع الخطايا، ويجب ممارستها ليس فقط

لأجل فوائدها، لكن لأن الله قد أمر بذلك)

الفصل الخامس: (لا يجب العودة إلى الخطية بعد التوبة عنها)

الفصل السادس:

(يجب ألا نتهاون عند نوال المعمودية، فإنها تحتاج أن يسبقها توبة

ظاهرة بتعديل نمط الحياة)

الفصل السابع: (التوبة في حالة من أخطأ بعد المعمودية)

الفصل الثامن: (أمثلة من الكتاب المقدس تؤكد أن الرب يريد المغفرة)

الفصل التاسع:

(بخصوص المظاهر الخارجية التي ينبغي أن ترافق هذه التوبة الثانية)

الفصل العاشر:

(تهرُّب الناس من التوبة الثانية ومن الاعتراف، وعدم منطقية هذا التهرب)

الفصل الحادي عشر:(انتقادات أخرى للاعتراف)

الفصل الثاني عشر: (تأملات أخرى للحث على الاعتراف)

النص الرابع: الصلاة

النص الخامس: المعمودية